أحمد مقداد
طيور البشارة
رواية

طيور البشارة

اسم الكتاب: طيور البشارة

اسم الكاتب: أحمد مقداد

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 260315-434-1-16

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2026م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

@ bassmabook

bassmabook@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأيّ صورة نشرَ أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

طيور البشارة

رواية

أحمد مقداد

دار بسمة
للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي روايتي هذه، إلى كل من كان يشجعني وأنا في بداية طريقي ككاتب هاوٍ.

شكرا لكم.

الفصـل الأول: دوَّار الشـوك

بالجهة الشرقية للبيضاء، وبإحدى مناطقها الشَّاسعة، بعيدا عن مركز المدينة وأحيائها الراقية، انتصب مُجمَّع سكني عشوائي أُقيم على أرض ممتدة واسعة. كان المجمَّع أو ما يُسمَّى "بدوَّار الشوك" عبارة عن أكواخ صفيحية في معظمها، بسطوح مموَّجة منحدرة كميازيب لتصريف مياه الأمطار دُعمت بالحديد والحجر لمواجهة الرياح العاصفة، كما دُعمت الأكواخ الجانبية بمداميك ارتفعت أحجارها تكاد تخفي الجدران. وفي خِضم الفوضى والعشوائية، تجرأ بعض السكان وأضافوا طابقا ثانيا بعد أن ضاقت بهم طوابقهم الأرضية لكثرة عيالهم، فصاروا يواجهون خطر انهيار أكواخهم فوق رؤوسهم.

كان المجمَّع، شبه منعزل عن باقي المساكن المجاورة. وسُمي دوَّار الشوك، نسبة إلى ما كان يغطي أرضه الخلاء من شوك متشابك عندما حط بها الروَّاد الأوائل رحالهم نازحين عن بواديهم بضواحي الحاضرة بحثا عن حياة عيش يسيرة فُضلى، تنسيهم سنين القحط والعطالة.

وللحد من تناسل الأكواخ - كظاهرة شائعة بأحياء الصفيح - أقامت السلطات سياجا إسمنتيا سميكا على جانبي الدوَّار الأيمن والأيسر، حتى بات من الصعب التمادي في خرق القانون. أمَّا الجانب الخلفي، فسيَّجته حظيرة وإسطبل، يليهما محلات للحدادة والنجارة.

بعيدا عن الدوَّار شرقا، تتراءى مقبرة منعزلة في الخلاء يلُفها السكون والوحشة؛ مقبرة قديمة لازمها

الإهمال فصدِئت بوابتها، وتصدَّعت جدرانها، بل وانتُهكت حرمتها، فانكفأت شواهد بعض قبورها مبعثرة، واستحالت أخرى رموسا مجهولة من فرط ما داستها الأقدام الآثمة.

ولوُعورة الطريق الحجِرة المؤدية إلى المقبرة - هناك في الأعلى - كانت المواكب الجنائزية تجد صعوبة في الوصول إلى بوابتها، سيما في الشتاء الماطر عندما تعمُّ الأوحال والبرك المائية. ولقربها من الدوَّار، ظل سكانه - إلى جانب قلة قليلة من ساكنة المنطقة - يدفنون موتاهم بأرضها. أمَّا الباقون، فيتوجهون بجنائزهم إلى مقابر أخرى حيث الطرق معبدة يسيرة، والأمن والأمان.

وتدعى المقبرة " بمقبرة سِيد العوني" تيمنا بولي صالح كان أول من دُفن بها منذ عقود خلت قبل أن تحيط القبور بضريحه المتواضع البسيط ذي القبة الوطيئة البيضاء. كان وليا مغمورا منسيا طال ضريحه الإهمال ولم يحظ كمشاهير الأضرحة بالعناية والإقبال. فحتى المؤمنون ببركة الأولياء وكراماتهم، يكتفون بالتبرك به عن بُعد عند زيارتهم لقبور أحبائهم. بل وحتى تجارة الشمع الرائجة بأبواب الأضرحة لا وُجود لها، كما لا وُجود لبواب مُشرف على شؤون الضريح. أمَّا الشحاذة، فلا أثر لهم في غياب الزوار.

ولقلة الدفن بها، تظل المقبرة شبه خالية طوال العام لا تعرف الإقبال سوى في اليوم السابع والعشرين من رمضان، وبدرجة أكبر.. يوم عاشوراء حيث يتوافد الزوَّار أفواجا متعاقبة فتحظى بعض القبور بالعناية

الترميم. ففي هذا اليوم العاشر من محرم، تشهد المقبرة حركيَّة ورواجا متنوعا ينطلق مع طلوع الشمس إلى ما بعد الظهيرة، حيث تُقام سوق بالمناسبة، تعرض فيها الفواكه اليابسة، والتين المجفف، والخبز والتمور، وكذا ماء الزهر، والريحان، والعود والبخور، ناهيك عن لعب للأطفال من مزامير، ودُمى، وأسلحة وأقنعة...

بالعودة إلى الدوَّار، فقد انبسطت في الأمام، ساحة فسيحة واسعة اتخذها بعضهم مرأبا مفتوحا يركنون به سياراتهم وشاحناتهم على طول جانبها الغربي، يحرسها حارس ليلي معتمدا على كلاب يقظة شرسة، تحرس بالليل، وتختفي تحت الشاحنات بالنهار لتستريح وتنام.

شرق الساحة، قبالة الزقاق الرئيسي للدوَّار، تنتصب عين عمومية ظلت مصدر الماء الوحيد للساكنة؛ عين لا تنضب تكاد حنفيتها لا تقفل بالليل كما بالنهار لكثرة الطلب على مائها العذب، إذ يتزاحم السكان حولها بسطولهم وبراميلهم منذ الصباح الباكر إلى ما بعد منتصف الليل، يتقدمهم باعة ماء محترفون دأبوا على ملء براميلهم المعدنية الثقيلة بالماء الشروب ليبيعوه بثمن بخس رخيص لمن لا يطوقون الزحام، ولا الشجار، ولا طول الانتظار. ولكونها منفعة مشتركة، تشهد العين شجارات ساخنة كثيرا ما تُنهيها النسوة بشتم وعراك، تُخمش فيه الوجوه، وتُنتف فيه الشعور، في صخب وصراخ.

عن يسار العين، ينبسط مغسل مُبَلط يتزاحم النسوة وحتى الرجال داخل رقعته الدائرية لغسل ملابسهم

وأغطيتهم وغيرها. يُغسل الغسيل ويُعصر، ثم يُنشر بالأزقة أو الساحة قبالة الأكواخ الأمامية على حبال تُشدُّ إلى أعمدة خشبية وُتِّدت مُحكمة في أماكنها.

كانت الساحة تظل هادئة شبه خالية إلى حدود العصر، حيث تنطلق حركيتها ورواجها بدءا بعشابين يدَّعون الخبرة والتجربة في طب الأعشاب. ولجلب الحشود حولهم، يبدأون بالصياح مروجين لمعروضاتهم من أعشاب مسحوقة، أو مُركَّبة مُستحضَرة على شكل مراهم، أو معاجين تُؤكل، أو فقط، رِبط تُطبخ وتُصفَّى، ثم تُشرب على الريق لمن يعاني التهاب الصَّدر، المثانة، أو حصى الكلي ... أعشاب فعالة مُجربة كما يزعم أصحابها، بل ولها من السِّحر بحيث تشفي أكثر من مرض دفعة واحدة بما فيها الأمراض المستعصية المزمنة.

غير بعيد عن حلقات العشابين الدجالين، يتحلق أناس آخرون واقفين أو مقتعدين الحجر حول لاعبي الورق أو الداما يتفرجون مبدين ملاحظاتهم في تفاعل يُضفي على اللعبة طابعا من الحماس والتشويق. إلى جانبهم، يجلس مقامرون قاعدين القرفصاء يقامرون بورق اللعب القديمة قمارا لا يتعدى الدرهم أو الدرهمين، حيث الحظ مُعتَقل مُوَجَّه لا يخطئ صاحبَه في خفَّةِ ألعاب السحر

على بُعد أمتار من حلقات اللعب والقمار شمال الساحة، تصطفُّ مطاعم بطاولاتها ومقاعدها عارضة أطعمة رخيصة متنوعة، خفيفة وثقيلة دسمة، من شِواء، سردين مقلي، أو مفروم مُكوَّر يغوص في مرقه البني، إلى

جانب رؤوس أغنام وأبقار مطهوَّة على البخار ... مآكل شهية تنشر روائحها فتُسيل لعاب الأطفال المشردين الجائعين الحائمين حول موائدها يتحيَّنون فرصة الانقضاض على ما فضُل في الصحون من طعام في غفلة من صاحب المطعم.

بالجهة المقابلة جنوب الساحة، يبرز باعة للملابس والأحذية المستعملة، إلى جانب بائعي الأشياء القديمة من متلاشيات وغيرها؛ باعة يحضرون ويغيبون إلَّا امرأة عجوزا ظلت حاضرة مألوفة في ركنها تعرض أشياء تافهة لا قيمة لها.. فهذه نظارة طبية تشقق زجاجها - على سماكته - واعوَّج إطارها. تليها ملاعق وسكاكين طالها الصدأ. أقلام رصاص مشروخة متآكلة، وأخرى من الحِبر الجاف نضب حبرها. إلى جانبها بركار بُترت ساقه المحورية فرقد فاقدا شوكته داخل مِقلمة كالتابوت المفتوح. في الأمام، لُعب للأطفال تجاوزتها الأجيال لا تخلو من أعطاب وتصدُّعات ظاهرة.. فهذه سفينة شراعية مزقت الرياح العاصفة أشرعتها فجنحت مستسلمة لا تقوى على الإبحار. وهذا قطار زاغ عن سكته فانقلب، يليه أنواع أخرى من اللُّعَب.

ظلت الساحة بأنشطتها المتنوعة تجتذب الخلق الكثير مذكِّرة شيوخ الدوَّار في بعض مشاهدها بأسواق القرى الأسبوعية، فيأخذهم الحنين إلى قراهم بعد أن نزحوا عنها بسبب القحط والعطالة منذ سنين. لقد قَدِموا المدينة حاملين معهم عاداتهم وتقاليدهم أملا في عيش كريم يسير، لكنَّهم

سرعان ما سيدركون صعوبة الحياة الجديدة وتعقيداتها، فندموا على مغادرتهم قراهم من أجل عيش مُخجل مخز داخل أكواخ كالخِممة؛ ندموا إلاَّ أنَّهم مع مرور الشهور والأعوام، سيخضعون لواقع اختاروه بأنفسهم.

ولندرة فرص الشغل بمصانع المدينة وغيرها - عكس ما تصوَّروا - اضطر معظم هؤلاء القرويين النازحين إلى العمل بالبناء، أو حمَّالين بأسواق الجملة، أو تحوَّلوا ببساطه إلى باعة متجولين ... لقد خاب أملهم فانعكست خيبته قلقا وكآبة ظاهرة في وجوههم.

وما كان يقلقهم ويخيفهم أكثر.. مستقبل أطفالهم وهم يكبرون في بيئة يعمُّها العنف، والتهميش، والفقر، وكانوا محقِّين.. إذ شبَّ معظم الأولاد منحرفين عدائيين يُدمنون الحشيش والكحول. بل وكوَّنوا عصابات إجرامية، كان أخطرها وأشهرها عصابة المقبرة كما يسمُّونها، لتمركز أفرادها بجوار المقبرة ليلا متخذين من زاويتها الجنوبية الأمامية معقلا لهم يمكِّنهم مراقبة ما يجري بالخلاء الممتد أمامهم تساعدهم مصابيحهم اليدوية ذات المدى البعيد.

كانت عصابة المقبرة قد احترف أفرادها أنواعها من الإجرام كالسرقة بأنواعها، فضلا عن ترويجهم المخدرات بما فيها الأقراص المهلوسة، والأخرى ذات الصُنع المحلي كالمعجون وغيره من أشكال تفوق الحشيش في خطورتها، تباع كالسكاكر وقطع الشوكلاطة. كان هؤلاء المنحرفون المجرمون ينشطون طوال النهار بأماكن مختلفة بعيدا عن المنطقة.

وعند العشي، تراهم يصعدون الخلاء صوب المقبرة مزودين بالحشيش والكحول، وأطعمة اشتروها في طريقهم من مطاعم الساحة. يبدأون بتنظيف مجلسهم مِمَّا خلفوه من نفايات سهرة البارحة، ثم يجلسون مقتعدين الحجر، لتنطلق جلستهم الخمرية في الهواء الطلق مطوَّلة إلى غاية الفجر. وفي الشتاء، عندما يكون الجو عاصفا ماطرا، يلجأون إلى بوابة المقبرة المسقوفة ليحتموا بها مواصلين سهرتهم؛ سهرة قد لا تخلو من شجار عندما يأخذ النبيذ الرخيص في التلاعب بعقولهم فيتدخل زعيمهم لتهدئة الوضع قبل أن يتفاقم. كان زعيمهم يكبرهم سنا، قوي البنية والشخصية يدعونه " شقور". نصَّبوه زعيما وقائدا عليهم لتجربته الطويلة في الإجرام وشراسته في القتال.. فقد يزمجر شقور، فيصمت الجميع منكمشين في أماكنهم. لقد سبق أن كسَّر ذراع أحدهم أراد أن يمازحه مزاحا لم يعجبه.. فالزعيم لا يعرف المزاح ولا الهزل، حتى أنه نادرا ما يضحك. أمَّا وحشيته، فاكتسبها كمجرم قطَّاع للطرق في وضح النهار. ولم يقتصر دوره كقائد وزعيم، بل تعداه إلى مهمة أخرى.. فعندما تكوَّنت العصابة، وتعاهد أفرادها الخمسة (معاهدة اللصوص) على اقتسام غنائمهم بالتساوي، أعلن شقور توليه المهمة بنفسه متوعدا محذرا من مغبَّة خرق المعاهدة بالغش أو الكذب.

وكما اشتهرت عصابة المقبرة بإجرامها، اشتهر آخرون في مجالات إجرامية أخرى كالدعارة والشعوذة تتقدمهم عرَّافة تدعى" أمي الهاشمية " تخطَّت شهرتها الدوَّار.

كانت أمي الهاشمية في خريف عمرها، شمطاء، قصيرة القد، ومن البدانة بحيث يصعب عليها النهوض من مكانها دون جهد وعناء. كانت تسكن كوخا صفيحيا ضيقا مظلما يشاركها زوج عجوز طيِّع خنوع يقوم بما تأمره به من حلال أو حرام. لم يُرزقا بالولد، فبقيا يعيشان وحيدين لا رابط بينهما سوى الألفة والمصلحة.. فالزوج العجوز الضعيف لا مطمع له سوى العيش في كنف زوجته الميسورة. أمَّا الزوجة، وفي حضور زوج بهذا الضعف والمهانة، فتكمن مصلحتها في ممارسة عرافتها بكل أمان وحرية كعطية ورثتها عن أجدادها كما ظلت تدَّعي.. إذ تزعم الإخبار عن خفايا الماضي والمستقبل عبر طرق وأساليب مختلفة من ورق اللعب، إذابة الرصاص، أو قراءة الكف وغيرها ... ولم ينحصر نشاطها في عِرافتها المزعومة، بل وسعته إلى أعمال أخرى من الشعوذة كالسحر وإبطاله، بل وعلاج من به مس من الجن، حيث تعاهدت لهذا الغرض مع شاب من حفظة القرآن ينتمي لقبيلتها ينادونه " بالفقيه "؛ شاب فارع الطول، صلب العود - على نحافته - لا يفارقه جلبابه المخطط الأبيض وطاقيته اللاَّصقة برأسه الأصلع الغليظ.

كان الفقيه في بداية طريقه المهني يتنقل بين الأسواق وساحات المساجد بائعا متجولا لأشرطة وكتب القرآن والتفسير لكبار المفسرين، فضلا عن كُتيبات الدعاء، والشفاء، والحصن الحصين. وإلى جانب تجارته ذات الطابع الديني، ادعى الفقيه قدرته في علاج الصرع.

ولـدعم دخلـه الهزيـل، رحَّـب بفكـرة العرافـة، وشـرع يعمــل بحمــاس وثقــة. ولأنهــا تلعــب دور الوســيط فــي المعاهدة، ظلـت العرافـة تـروِّج لقـدرة شـريكها المزعومـة لدى زبائنها، إلا أن المهمة سـوف لـن تكـون سـهلة يسـيرة على الفقيه.. فكثيـرا مـا تلقـى البصـاق فـي وجهـه، ونُتِفـت لحيتـه الشـبيهة بلحيـة التـيس عنـدما يلجـأ إلـى العنـف فـي علاجه مشمرا عن ساعديه، أو يدنو مثبتـا المـريض الثـائر المزمجر، حتى أنه يلوذ بالفرار تاركا بلغته خلفـه وحزامـه الجلدي السميك أداته في العلاج.

ظلـت أمـي الهاشـمية، المـرأة الجاهلـة الأميـة، تجنـي النقود من هنا وهناك، إلَّا أنَّها لم تكـن تتصـور يومـا وهـي في بداية طريقها كمشعوذة محترفة، أن تستقبل إلـى جانـب زبائنها البسطاء، تجارا كبـارا، أطـرا فـي القطـاع الخـاص والعـام، بـل وأسـاتذة ومـدراء ... فبعـد أن اشـتهرت وذاع صيتها، أخـذ هـؤلاء الرجـال بمنـزلتهم ومكـانتهم يتـرددون إلى كوخها الصفيحي الصدئ مع حلـول الظـلام، أمـلا فـي أن يجدوا عندها وصفة سـحرية تفـي بأغراضـهم.. فتـراهم يركنون سياراتهم بعيدا عن الـدوَّار قبـل أن يترجلـوا عنهـا صـوب كـوخ العرافـة متسـللين متنكـرين تقـودهم أغـراض ومطامح يسعون بلوغها عبر السحر والشعوذة.

وأكثر ما يكون الإقبـال علـى وصـفات العرافـة.. ليلـة عاشوراء حيث يتزاحم الزبائن داخل كوخها الضيق إلى ما بعد الفجر. إنهـا ليلـتهم المنتظَـرة.. ليلـة السـحر بامتيـاز لا يجب إضاعتها تحت أي عذر.

مناكر من الشعوذة، والانحراف، والفساد، ظل سكان الدوَّار يعانونها على مدى الأعوام معاناتهم مع العيش، والسكن، والحرائق والفيضان.. فكغيرهم من ساكنة الأحياء الصفيحية العشوائية، تشتد مِحن هؤلاء الأشقياء عندما يواجهون فيضانا جارفا مدمِّرا، أو حريقا مهولا مداهما كالذي شبَّت نيرانه الملتهبة ذات ليلة عاصفة في أحد الأكواخ، لتنقلها الرياح إلى الأكواخ المجاورة موسِّعة رقعتها. كان حريقا مرعبا متشعبا مجهول الفاعل والمصدر، خلَّف ضحايا وشرد أسر، في فاجعة نزلت كالصاعقة على السكان وهم نِيام تاركة أثرا موجعا في نفوسهم. ولولا تجندهم لإخماد النيران المستعرة المتأججة إلى جانب رجال الإطفاء، لاستحال الدوَّار أنقاضا متفحمة، ولبات الناجون في العراء.

وتمضي الأعوام بشهورها وفصولها وسكان الدوَّار على هذه الحال من مِحن وأخطار. لكنهم ما يئسوا، وما فقدوا أمل حصولهم على سكن لائق يحفظ لهم كرامتهم وسلامتهم. بل واصلوا صبرهم صامدين مكابدين في انتظار الفرج اليقين.

هكذا، وعند مغرب أحد الأيام، حطَّت أسراب هائلة من الطيور فوق الأسلاك الكهربائية للدوَّار وحبال النشير في مشهد يخطف الأبصار. كانت طيورا جميلة شديدة البياض في حجم النوارس، أدركها المغيب، فحطت مضطرة لا خيار لها.

لقد أثار قدومها المفاجئ إعجاب الصغار والكبار فاحتشدوا يتطلعون إليها منذهلين منبهرين بجمالها وبهائها في هدوء وسكون لا يجرؤون على إزعاجها كأنها طيور مقدسة. بل تركوها تستريح وتنام آمنة مطمئنة وقد أخذت تغفو متجاهلة حشد المعجبين المنبهرين. وبينما اعتبرها بعضهم مجرد طيور عابرة مهاجرة - على ما فيها من جاذبية وسحر - توسَّم فيها آخرون فألا حسنا، وحسبوها طيور بشارة حطت نزيلة حاملة بين أجنحتها ما قد يُسعدهم في حاضرهم ومستقبلهم.

وأمام استغراب الجميع، حدث ما توسَّمه الحالمون المؤمنون بالفؤول الحسنة.. إذ ما إن جاء الصباح، ورحلت الطيور مستأنفة طيرانها، حتى حلَّت بالدوَّار لجنة مكلفة بإحصاء وتسجيل السكان المؤهلين للحصول على سكن لائق ما لبث أن تفرق أعضاؤها عبر أزقة الدوَّار الملتوية الضيقة، حاملين سجلاتهم داخل حقائبهم ليباشروا عملهم بمعية رجال الأمن والأعوان، في مهمة لن تكون سهلة يسيرة.

بعد أسبوعين متتاليين، أنهت اللجنة عملها بحالاته المعقَّدة المتشعبة. ولأن السكان فقراء ضعفاء لا يستطيعون أداء ثمن سكن لائق بديل - ولو بالتقسيط لأجل بعيد كما تبيَّن من الإحصاء - بشرهم رئيس اللجنة بسكن اجتماعي غير بعيد عن منطقتهم مقابل إخلائهم لأكواخهم وحظائرهم.. أي الأرض التي عمَّروها منذ سنين. وسيتم ترحيلهم إلى مساكنهم الجديدة فور انتهاء البناء. ثم تابع يقول: «... وعلى المؤهلين المسجلين، أن يثبتوا أهليتهم

بالوثائق المطلوبة من شهادة السكنى وغيرها، في الآجال المحددة» .

عمَّت الفرحة السكان وعلت الزغاريد، فعلَّق شاب رافعا صوته : (إنه الحل الصائب الأنسب.. فنحن فقراء ضعفاء بالكاد نوفِّر قوت يومنا، وليس لنا ما ندفعه في المقابل - كما قلتم - سوى إخلائنا لهذه الأرض التي وُلدنا وكبرنا بين أحضانها.)

فأضاف آخر مؤيدا: «صحيح.. فقيمة هذه الأرض المِضيافة الشاسعة بساحتها وموقعها، قد تغطي تكاليف بناء مركب سكني اجتماعي بشققه ومتاجره يأوينا جميعنا» .

سَعِد أعضاء اللجنة لِما بدا على السكان من فرح وارتياح، فأدخلوا سجلاتهم في حقائبهم، وغادروا في اتجاه سياراتهم المركونة برصيف الشارع العام، وسكان الدوَّار من خلفهم يشيِّعونهم مسرورين مبتهجين، مُجدِّدين الأمل في نفوسهم، كما يُجدَّد الإيمان في قلوب المؤمنين.

هكذا كان قدوم تلك الطيور، فأل خير وبشارة على ساكنة الدوَّار. ولِتكمل بشارتها، عليها أن تعود يوما لتبشرهم - هذه المرة - بالرحيل إلى مساكنهم الجديدة في عزة وكرامة، وقد استلموا مفاتيحها، وما يثبت ملكيتها.

الفصل الثاني: مقهى شباب الحي

ككل صباح، خرجت حليمة من كوخها بدوَّار الشوك تدفع بولدها المعاق مقعده المتحرك قاطعة به عرض الساحة في اتجاه المقهى حيث يجلس بائعا للسجائر "بالديطاي". كان الجوُّ ربيعيا معتدلا تظهر فيه الشمس وتغيب وراء السحب العابرة. وهي في طريقها، انحنت الأم على ولدها تحركه من كتفه بلطف وهي تقول:

ـ حسن.. استيقظ.. استيقظ يا ولد.. كفاك نُعاسا!

لكنَّ الولد لم يستجب وظل نائما يتهادى رأسه ويهتز باهتزاز مقعده. توقفت الأم عند رصيف الشارع تنتظر فرصة العبور إلى الجهة المقابلة حيث يتواجد المقهى، ثم عادت توقظ ولدها من جديد.

ـ حسن.. استيقظ.. نحن على وشك الوصول.

فغمغم الولد كالمنزعج، وأخذ ينفض رأسه كأنه يطرد عنه النعاس. قطعت الأم الشارع في حذر، وتوقفت لتوِّها عند مقهى يدعى: "مقهى شباب الحي" ثم رفعت المقعد من عجلتيه الأماميتين، ودفعت به لتركنه بالركن الأيمن لرصيف المقهى حيث اعتاد ولدها الجلوس بائعا لسجائره.

صحا الولد من نعاسه، وأنشأ يتهيأ ليباشر عمله. وقبل أن تودِّعه، كان لا بد للأم أن تذكِّره بنصيحتها المعهودة:

ـ كن حذرا يقظا.. لا تقرض زبونا ولو نصف سيجارة!

ثم طبعت على جبينه قبلة الأمومة الدافئة، ومضت إلى عملها كخادمة بيوت من الصباح إلى ما بعد الظهيرة. كانت ترتدي جلبابا باهتا فضفاضا يخفي جسمها النحيل، وتشدُّ رأسها بمنديل تدلَّت أطرافه على كتفيها المنحنيتين.

ما كاد حسن يستقيم في مقعده بعد ذهاب والدته موليًّا ظهره لواجهة المقهى حيث تظهر الساحة في الأمام خلف الشارع العام المزدوج يليها الدوَّار بمظهره القاتم الكئيب، حتى التف حوله زبائنه الأوفياء يلقون عليه تحية الصباح، ويقتنون سجائره. ورغم نصيحة أمه المتكررة بعدم إقراضه لسجائره، ظل حسن وفيًّا لطبعه متساهلا مع زبائنه حتى وإن كان أكثر مدينيه يتماطلون في أداء ما عليهم من دين، بحيث يستحي أن يردَّ زبونا خائبا من أجل سيجارة أو سيجارتين ...

لبَّى حسن طلبات الدفعة الأولى من زبائنه، وطفِق يرتب سجائره داخل صندوقها الخشبي. كان حسن فتى طيبا وديعا ودودا. أُصيب بشلل حركي حرمه الوقوف والمشي، فظل يعاني آلام شَلَلِهِ منذ صغره صابرا لا خلاص له من قدره. أعرض عن المدرسة بسبب إعاقته، فلازم البيت منطويا على نفسه قلَّما يغادره. وعندما كبر وصار شابا، بدأ يسأم مكوثه بين الجدران، فطلب إلى أبيه أن يبحث له عن شغل يناسبه، أو حرفة يتعلمها. رحَّب أبوه بالفكرة، ورأى أن الوقت قد حان ليعتمد الولد على نفسه ولو لسد حوائجه، فأنشأ يبحث له عمَّا رغب فيه، لكنَّ سوق الشغل في ركود، والحِرف التقليدية في انقراض

مستمر، ليواصل الولد أيامه الضائعة لا حرفة يتعلمها ولا شغل، إلى أن رضي ببيع السجائر برصيف مقهى شباب الحي بوساطة أحد المعارف في انتظار الأفضل.

وفيما كان حسن منحنيا يرتب سجائره، حطَّت يد على كتفه من الخلف يسأله صاحبها عن حاله ويطلب إليه سيجارة.. إنه العقيد مزوار العامل بالمقهى. كان مزوار شابا في نهاية عقده الثالث، بشوشا ضحوكا لا تراه عابسا ولا غاضبا منفعلا إلاَّ نادرا. لقبوه بالعقيد نسبة إلى ما قضاه من أعوام طوال في العطالة عاطلا عن العمل. بل وكان على وشك الارتقاء إلى رتبة "جينرال" لولا أنه اشتغل أخيرا بمقهى شباب الحي. ولإخلاصه وتفانيه في العمل، حظي بثقة مُشغِّله، فأعطاه مفاتيح المقهى ليصير مسؤولا على فتح أبوابه في الصباح الباكر، وإقفالها عند منتصف الليل، مع مراقبة ما يدور بفضائه. كان دائم الحضور متعدد المهام.. فتراه ينوب عن النادلة أو العامل خلف الكونطوار إذا ما تغيَّب أحدهما، كما تراه نائبا أو مساعدا في أمور أخرى، فضلا عن عمليتي الكنس والتنظيف نشيطا مواظبا لا يعرف الكلل ولا الملل.

وكما بدا العقيد سعيدا مرتاحا في عمله، بدا كذلك في حياته الشخصية لا يُقلقه مستقبله، ولا تحرجه عنوسته.. فعندما سأله أصدقاؤه ذات يوم عن سبب عنوسته المطوَّلة، رفع رأسه ضاحكا، وقال إنه متزوج - عكس ما يعتقدون - بجنية وفية مخلصة في السر لا تكلفه درهما واحدا.. إذ هي لا تأكل، ولا تشرب، ولا تكتسي، ولا تمرض مثل البشر.. دُمية حية تؤنسه بالليل، وتودِّعه عند الفجر عائدة

إلى عالمها الخفي. فضحك أصدقاؤه مقهقهين، إلاَّ واحدا ظلَّ صامتا مُستغربا يتساءلُ في نفسه عن كيف للعقيد أن يتزوج مخلوقة خُلقت من نار، وهو طين؟! لكنه ما لبث أن عدل عن تساؤله عندما أدرك أن العقيد يمزح كعادته، فانخرط بدوره في الضحك.

لبَّى حسن طلبَه، فعاد العقيد ليجلس إلى طاولته داخل المقهى حيث اعتاد الجلوس قبالة الباب عندما لا يجد ما يعمله سوى مراقبة ما يدور أمامه. كان المقهى بالداخل من البساطة بحيث لا ديكور ولا رسم يُذكر، باستثناء لوحة لرسام مغمور عُلقت بالجدار الخلفي بالكاد تُظهر جانبا من صحراء قاحلة لِما طالها من غبار ودخان السجائر. كراسي وطاولات خشبية ثقيلة متقادمة تجاوزها العصر. نوافذ زجاجية مغبرة مشروخة.

حيطان باهتة تقشر طلاؤها. ساعة جدارية عتيقة توقف رقاصها عن الرقص فتوقف زمنها. كونطوار خشبي عريض سميك. عن يساره درج قبو مظلم به مرحاض. وعلى عكس الرصيف، كان المقهى خاليا بالداخل في تلك الفترة من الصباح. كان العامل خلف الكونطوار جالسا في مكانه يتحدث إلى النادلة عند ما ناداه العقيد:

ـ عزيز.. حضِّر قهوة الرحماني.. ها هو ذا قادم.

فأنشأ عزيز ـ وهو شاب سريع الحركة ـ يحضِّر ما أمر به العقيد في خفة واحترافية بحيث ما كاد الزبون

ينضمُّ إلى زملائه سائقي الشاحنات المركونة بساحة الدوَّار الجالسين برصيف المقهى، حتى كانت النادلة قد وضعت فنجان قهوته في متناوله، وعادت تحمل مِنفضة سجائر لتفرغها من أعقابها. وهي عائدة، طلب إليها زبون شاب جلس لتوِّه فنجان قهوة، لكنها ردت عليه تقسم قائلة:

ـ والله لن تشربها حتى تؤدِّي ما عليك من دين!

فتساءل الزبون منفعلا:

ـ ثلاثة فناجين قهوة تحسبينهم دينا؟! ثم ما شأنك أنت؟

لم يُعجب النادلة كلام الزبون، فدخلت معه في شجار سارع العقيد لفضِّه. في هذه الأثناء، أقبل صاحب المقهى خارجا من منزله المحاذي بابه للركن الأيمن لرصيف المقهى، وتوقَّف يسأل النادلة عن سبب شجارها مع الزبون. أخبرته بالأمر، فقال لها بهدوئه المعهود:

ـ لا بأس.. أحضري له قهوته.. فلا يجب أن نخسر زبونا من أجل فنجان قهوة، سيما إذا كان من أبناء الحي.

ـ شكرا لك أخي توفيق.. شكرا لك! ردَّد الزبون.

ـ لا بأس.. لا بأس.. المقهى مقهاكم يا شباب الحي! قال توفيق.

ثم التفت إلى حسن يسأله عن حاله، ودخل المقهى ليجلس خلف الكونطوار كعادته. أشعل سيجارة في هدوء، وطفِق يراجع ما لدى عزيز من حسابات البارحة مستعينا

بآلته الحاسبة لا يخامره شك في صحة أرقامها. كان توفيق شابا ثلاثينيا، نحيفا ضامر الخصر، مربوع القد. توفي أبوه بعد وفاة والدته، فتركه الوارث الوحيد لمنزل من طابقين مع مقهى مجهز بطابقه السفلي؛ منزل واسع كبير ظل يسكنه وأسرَته الصغيرة، وكذا عمارتين بشقق ومتاجر للكراء، فضلا عن رصيد بنكي محترم، ليجد الابن نفسه وارثا ثريا محظوظا عليه تدبير ما ورثه بحكمة ومسؤولية مُقتديا بالمرحوم والده.

بعد وفاة أبيه وتأبينه بقليل، سارع توفيق يستبدل أثاث مسكنه بالطابق الثاني بأخرى عصرية فاخرة، كما غيَّر شكل الطابق الأول - مسكن والديه قيد حياتهما - وخصصه لاستقبال الضيوف. أمَّا سيارته الصغيرة المتقادمة، فاستبدلها بأخرى ثمينة فارهة. تغييرات وتحسينات أسعدت زوجته، كما أسعدت ولديه المنتقلين بحماسهما وأناقتهما إلى التعليم الخصوصي، حيث النقل المدرسي يريحهما، يسليهما، ويجنبهما أخطار الطريق ... حتى الآن كل شيء على ما يرام. لكنَّ إسراف الرجل في البذخ وتبذير المال باليمين والشمال، بات يقلق زوجته ويخيفها. وكلما نبهته إلى إسرافه وتبذيره، يرد عليها مطَمئِنا مبتسما: «لا تقلقي.. الخير موجود والحمد لله!» .

فحياة التقشف التي عاشها توفيق وأسرَته عاملا مساعدا للمرحوم والده بالمقهى مقابل أجر بالكاد يكفيه لإعالة أسرته، قد ولَّت إلى غير رجعة، وبزغ فجر حياة جديدة سرعان ما خلَّصت الأسرة من تقشفها، فغدت تنعم بطيب العيش وطمأنينته ورفاهيته إلى أن بدأ نشاط الرجل

يتراجع في فتور، وبدأ الشرود والخمول يلازمانه. وما أذهل زوجته وأقلقها.. انحراف زوجها المفاجئ بتعاطيه المخدرات. فهو الذي لم يكن يدخن السيجارة، أضحى يدخن الحشيش مهملا شؤون مقهاه إهمالا أفقده بريقه وسمعته، ورواج زمانه الجميل عندما كان يديره أبوه.. فمعظم زبائنه المحترمين غادروه، وبدأ يرتاده شباب عاطلون لا رِبح يُجنى من ورائهم.

فباستثناء أسرته، بدا توفيق وكأنه فقد اهتمامه بكل شيء بدءا بنفسه.. إذ لم يعد ذلك الرجل الأنيق المحترم منذ بدأ يُدمن الحشيش بجيِّده ورديئه. وعلى غرار مقاهي الجوار، أنشأ يُشغِّل نوادل شابات محترفات ظل يتعامل معهن باحترام وفي حدود العمل كما يستوجب، إلاَّ أنَّ ألسنا ما انفكت تتهامس عليه متهمة إياه بالرجل الشبق الفاسق تهيأت له الظروف، فراح يشغِّل فتيات كواعب جميلات يفضن أنوثة وشبابا بغية التحرش بهن. تهمة خطيرة قد تفكك أشد الأسر تماسكا.

لكنه، ولحسن حظه، لم تكن زوجته تهتم بما يدور أو يشاع بالمقهى، وما تدخلت يوما في شؤون زوجها، أو ساورتها الشكوك في وفائه وإخلاصه لها، سيما والعمل بالمقهى، لم يعد حِكرا على الذكور.

أطفأ توفيق آلته الحاسبة. طوى سجلَّ الحسابات بفواتيره، ثم أشعل سيجارة ثانية والتفت ينظر إلى الخارج عبر نافذة الواجهة المحاذية، فإذا به يلمح صديقه جعفرا

قاما يقطع الشارع في خفته المعهودة، فنهض من مقعده، وخرج ليجالسه برصيف المقهى كعادته آمرا:

ـ عزيز.. حضِّر قهوة جعفر.

جلس الصديقان إلى طاولة شاغرة بالركن الأيسر، فبادر جعفر يسأل صديقه:

ـ كيف حالك يا صديقي.. أراك مهموما مكتئبا هذه الأيام؟!

فأجاب توفيق يشكو مكررا ما صار عليه من عياء وضجر وخمول، ناهيك عن هلاوس وكوابيس مخيفة مزعجة ما انفكت تلازمه. في هذه الأثناء، وضعت النادلة قهوة جعفر في متناوله رشيقة مبتسمة وعادت تواصل عملها. سطَّر جعفر خطا مستقيما من مسحوق التبغ على ظهر يده، ثم استنشقه دفعة واحدة. رمى بقطعة سكر في فنجان قهوته، وطفِق يحركها متفكرا في أمر صاحبه. كان جعفر في بداية عقده الرابع، أسمر اللون، بدينا، قصير القد. كان دائم الحِرص على مظهره أنيقا حليق الذقن تسطع منه رائحة المسك. مَن يراه لا يصدق أنه يسكن كوخا صفيحيا بدوَّار الشوك. ظل يعمل بإحدى شركات النسيج إلى أن طُرد بحجة السرقة، فأنشأ يعمل سمسارا في بيع وشراء السيارات المستعملة. كسب صداقة توفيق، فاتخذ من مقهى هذا الأخير مقرا له يمارس به نشاطه المهني.

رشف جعفر من قهوته، والتفت ينظر إلى صديقه كالمتأسف، ثم قال له:

ـ ماذا أقول لك يا صديقي.. فإدمانك الحشيش بإسراف، قد بدأ يفعل فيك مفعوله السلبي كما يبدو! فلماذا لا تجرب مخدرا راقيا خالصا يليق بالمقام ويُسر الحال؟

فحملق فيه توفيق في استغراب وتساءل:

ـ تقصد الكوكايين؟!

ـ نعم.. لقد استُعمِل بادئ الأمر علاجا للاكتئاب والتوتر، قبل أن يُحوَّل إلى مخدر له من السحر ما يجعل المرء نشيطا مرحا، حالما منتشيا. فلو كان بميسوري، لما ترددت لحظة في تعاطيه بدل مسحوق التبغ. فوضعك المادي ـ والحمد لله ـ لايسمح لك إدمان مخدر متَّسخ رخيص. انظر إلى وجهك كيف صار شاحبا فاقدا نضارته! إلى شفتيك كيف اسودتا! إن كنت تبحث فعلا عن النشوة، فابحث عنها في مكانها الحقيقي وإلاَّ فلا.

سكت توفيق متفكرا في نصيحة صديقه، ثم تساءل عن كيف له الحصول على المخدر النادر الثمين، والمنطقه ليس بها سوى مروِّجي الحشيش والكحول؟

فأجابه جعفر بصوت خفيض كالهمس:

ـ اترك الأمر لي.. فإن عزمت، فأنا أعرف كيف أحصل عليه مسحوقا خالصا، وبالثمن المعقول.

ـ كيف.. أتعرف أماكن بيعه؟

ـ مالنا ولهذه الأماكن، حيث البضاعة مغشوشة مزوَّرة، والأثمان خيالية كأثمان السوق السوداء! بل أعرف مروِّجا محترَما لا يتعامل سوى مع كبار الشخصيات والأثرياء المعارف الأمناء. إنه صاحب الملهى الليلي "لابلنسوار".. رجل طيب كريم من أفضل زبائني.. فكلما أراد بيع إحدى سياراته المرقَّمة بالخارج، اتصل بي على الفور. إنه يثق بي، وسوف لن أجد صعوبة في جعلك زبونا له. فكِّر مليا في الأمر، وعندما تعزم مقتنعا، فأنا في الخدمة.

ثم نظر إلى ساعته بعد أن جرع ما تبقَّى من قهوته الصباحية المجَّانية، وانتصب واقفا يسوِّي سترته وربطة عنقه البارزة وهو يقول:

ـ معذرة.. عليَّ الذهاب الآن.. فلديَّ موعد مع زبون يريد بيع سيارته. فكِّر في الأمر كما قلت لك وأعد التفكير. مع السلامة.

فردَّ توفيق بإشارة من يده في شرود ونهض بدوره. وبدل أن يعود إلى مقعده خلف الكونطوار، دخل منزله وصعد الدرج مباشرة إلى السطح ليدخن لفيفة حشيش كما تعوَّد بعيدا عن الأنظار.

بالعودة إلى المقهى، كان العقيد لا يزال جالسا إلى طاولته بالداخل قبالة الباب عندما أبصر شبابا قادمين يقطعون الشارع في تهوُّر، فالتفت إلى عزيز يقول له:

- عزيز.. حضِّر شاي الشباب.

ألقى الشباب التحية على العقيد وزميليه رافعين أصواتهم وهم يلجون المقهى صوب ركنهم الشاغر في الخلف حيث اعتادوا الجلوس إلى طاولة مزدوجة كأنها صُمِّمت خصِّيصا لأجلهم. وما كادوا يأخذون أماكنهم، حتى جاءهم العقيد ببراد الشاي مرحبا مبتسما، وجلس إلى جوارهم يشاركهم الحديث.

كان الشباب - كما يناديهم صاحب المقهى - من قاطني الدوَّار. انقطعوا عن الدراسة، ليصرفوا شبابهم في العطالة عالة على مُعيليهم. أضناهم التسكُّع في الشوارع والوُقوف بالأزقة، فاتخذوا مقهى شباب الحي ملاذا لهم يجلسون به صباح مساء بلا كلل ولا ملل إذ وجدوا في صاحبه ذلك الرجل الكريم المتساهل المتفهِّم لوضعهم كشباب عاطلين فقراء ليس لديهم ما يستهلكونه سوى الوقت.

ولدهشتهم، أنشأ السي توفيق - كما ينادونه - يتفضل عليهم ببراد شاي من الحجم الكبير في الصباح، وآخر في المساء كرما منه، لتنحصر أيامهم بين البيت والمقهى، عبر طريق قصير لا ينحرفون عنه سوى للضرورة القصوى، متذرعين بانعدام فرص شغل يتوافق وطموحاتهم، ذريعة أقنعوا بها أنفسهم دون غيرهم، فانصرفوا يدمنون الكسل والخمول، والغوص في أحلام اليقظة.. المرآة العاكسة لأمانيهم ورغباتهم المكبوتة حيث ينسج الخيال ما عجز عنه الواقع بلا قيد، ولا شرط، ولا عناء...

اعتـاد الشـباب أجـواء المقهـى، كمـا اعتـادوا الجلـوس بفضـائه الـداخلي مقتعـدين مقاعـد سـميكة ثقيلـة قلـيلا مـا ينهضون عنها حتى وإن تشنَّجت أرجلهـم، لا يُطلـب مـنهم سوى الجلوس في هدوء واحترام وعدم تـدخين الحشـيش.. فصاحب المقهـى لا يخفـى عليـه تعـاطيهم المخـدرات، لـذا حذرهم ذات يوم بلهجة صـريحة حازمـة تـنمُّ عـن خطـورة الأمر وعواقبه رافعا صوته: «اسـمعوا يـا شـباب.. ممنـوع تدخين الحشيش بهذا الفضاء السعيد، وإلاَّ فلـن أتسـامح مـع مَن يجرؤ على تدخينه أو ترويجه! أرجوكم لا تلوثوا سمعة المقهى بسمومكم، وتعرضونا للإفلاس والسجن! » .

وكيلا يُغضبوا السي توفيق فيطردهم من مقهاه تائهين متسكعين، اتخذ الشـباب مـن زوايـا الأزقـة خلـف المقهـى، أماكن يدخنون بها حشيشهم بالتناوب.

أخـذ الشـباب يرتشـفون الشــاي ويـدخنون السـيجارة منعـزلين فــي ركـنهم يمـازحون العقيـد ويضـحكون لأتفـه الأسباب. وكمن تذكر شيئا، أخرج أحدهم بطاقة بريدية من جيبه تمثل صورة لناطحات سحاب "دبي " يتوسطها بـرج خليفة الشاهق الشهير، وراح يريها لأصدقائه قائلا:

ـ أتعرفون من المُرسِل؟

ـ لعلَّه جواد! أجاب أحدهم.

ـ فعلا جواد! أكد صاحب البطاقة، ثم استطرد:

ـ ليته يفي بوعده، ويبعث لي بعقد عمل في شركة الإسمنت حيث يعمل!

ـ ليته يبعث لنا جميعا بعقود عمل، فنجتمع هناك كجالية، أصدقاء وزملاء، ومعنا العقيد! قال آخر.

فابتسم العقيد وقال:

ـ لا.. لا يا شباب.. اتركوني في مكاني بين أهلي وأحبائي.. لقد عجزت بعض الشيء، وما فكَّرت يوما في أن أهاجر بلدي.

تنهَّد صاحب البطاقة وهو يعيد بطاقته إلى جيبه، ثم قال:

ـ ليتني ألتحق بجواد، أعمل بدبي، ولا أعود إلاَّ مالكا سائقا سيارة فارهة مُلفتة أفقأ بها عيون الأعداء.. الجدد منهم والقدماء!

ـ أمَّا أنا.. فسوف أدَّخر المال الكثير، لأشتريَ منزلا واسعا كبيرا، أنتشل به والديَّ العجوزين من جحيم الدوَّار ومشاكله! قال آخر

ـ عين العقل! علَّق العقيد.

واصل الشباب حديثهم معبرين عن أمانيهم وأحلامهم الخليجية إلاَّ واحدا منهم ظل مُسنِدا رأسه بذراعيه إلى الطاولة غارقا في نومه لا يثير انتباه ولا استغراب أصدقائه إذ اعتادوا رؤيته على هذه الحال، حتى أنهم لقبُّوه

"بالنعَّاس". فحضوره بالمقهى، لم يكن لـه مـن دافـع سـوى النوم كأنه لا ينام كِفاية بالليل داخل كـوخ ضـيِّق آهل يعـجُّ بالأولاد من إخوة وأخوات...

حرَّك أحدهم رأس النعَّاس كأنه يوقظه، وصاح به:

ـ النعَّاس.. استيقظ يا صاحبي! استيقظ.. قل لنا أمنيتك. نحن نعلم أنك تسمع حتى وأنت نائم تغط في النوم.

فرفع النعَّاس رأسه منزعجا، وقال بلسانه الثقيل:

ـ ما مِن أمنية لي.. سوى الحصول على مخدر قـوي.. يُدخلني سُبات الدببـة مـدى الفصـول الأربعـة، حتـى ألقـى خالقي!

ثـم أغمـض عينيـه المحمـرتين، وانكفـأ برأسـه علـى الطاولة يستأنف نومه.

ـ هـذا تمويـه.. انتحـار مُقنَّـع! لا حيلـة مـع الله! علَّـق أحدهم.

فاقترب آخر من النعَّـاس بحـذر، وصرصـر فـي أذنـه يُضيف قائلا:

ـ هذا جُبن! أنت تلوذ بالنوم كيلا تواجه الحياة!

فرفع النعَّاس رأسه من جديد ، وتساءل قائلا:

ـ وأنـت أيهـا المسـتيقظ طِـوال النهـار.. هـل اسـتطعت مواجهتها، أم كفاك تعليل النفس بالأوهام والأماني الفارغـة لا تُبارح المقهى؟

ثم عاد ليغوص في نومـه تحـت تصـفيقات العقيـد. فـي هذه الأثناء، دخلت النادلة عائدة من رصيف المقهى تحمـل صينيتها، فناداها أحد الشباب:

ـ فدوى.. قنينة ماء بارد من فضلك.

أحضرت فدوى قنينة ماء، ووقفت تتحدث إلى الشـباب قبل أن تسـتأنف عملهـا. كانـت فـدوى شـابة مطلقـة دفعتهـا ظروفهـا إلـى العمـل، فخرجـت تعمـل نادلـة مقهـى كمهنـة وجـدتها سـهلة بسـيطة لا تتطلـب شـهادة، أو تكوينـا، أو تجربة، سوى بعض الخفِّة والرشـاقة. اشـتغلت بعـدة مقـاه، لكنها لم تجد راحتها ولا استقرارها سوى في مقهـى شـباب الحي لطيبة صاحبه وكرمه.

انتصف النهار، فبـدأ الزبـائن يغـادرون المقهـى تِباعـا تاركين رصيفه شبه خال. أمَّا حسن، فظل قابعـا فـي ركنـه لصِقا بمقعده وقد بدأ يشعر بـالجوع والتعب عنـدما جـاءت أمه لتأخذه إلى البيت ليتغدى ويسـتريح كسـائر الأيـام عـدا يوم الجمعة.. يوم عطلة الأسبوع حيث يقضي حسن معظـم وقتـه مسـتلقيا نائمـا، إذ نـادرا مـا تـراه جالسـا علـى مقعـده جانب البيت متحـدثا إلـى أصـدقائه مـن أبنـاء الجيـران، أو متفرجـا علـى الأطفـال وهـم يلعبـون بالسـاحة أمامـه كئيبـا

حزينـا يتـذكر طفولتـه الضـائعة.. حرمانـه اللعـب بسـبب إعاقته.

الفصل الثالث: الصَّردي

بعد خروج زوجته وابنه حسن إلى عملهما بقليل، استيقظ الصَّردي من نومه منزعجا مِن خبط جاره الحدَّاد لحديده خبطا صاخبا ارتجت له أركان الأكواخ الصفيحية المجاورة، فنهض الرجل من فراشه يغمغم ساخطا متوترا، وخرج إلى صحن كوخه ليغتسل ويحضِّر الفطور.

عاد الصَّردي إلى غرفته، وجلس يتناول فطوره لا يفتأ يُحوقل منزعجا مضطربا كلما عاود الحدَّاد خبطه لحديده المُستعصي.. لقد صار الرجل مع توالي الأعوام لا يحتمل المزيد من أشكال الصخب والضوضاء، حتى أنه يلجأ إلى حشوِ أذنيه بالقطن علَّه يخفف عنه رهابه وانزعاجه مُعتبرا عاهة الصمم، نعمة من النعم، وسط مجمِّع سكني عشوائي آهل مكتظ كدوَّار الشوك.

أنهى الصَّردي فطوره على إيقاع خبط الحدَّاد لحديده تنتابه نوبات توجُّسية قسرية، ونهض يتهيأ للخروج. كان الصَّردي شيخا مديد القد، عريض الكتفين، مَهيب الطلعة بلحيته البيضاء الناصعة، حصيفا، ورِعا، وقورا. ظل يعمل بمصنع للخشب إلى أن تقاعد بمعاش هزيل دفعه إلى البحث عن عمل قد يُعزز به معاشه. اشتغل بوابا لإحدى العمارات بعيدا عن المنطقة، إلاَّ أنه، وأثناء عودته من عمله ذات ليلة ماطرة ممتطيا دراجته الهوائية، هوت به عجلتها الأمامية في حفرة طريق مظلمة، فسقط الرجل الحسير البصر، وكُسرت ساقه اليسرى. ولسوء حظه، لم يُكلَّل جبرها بالشفاء المأمول، بل ظل الألم يعاوده كلما جَهد في المشي متكئا على عكازه. أمَّا دراجته، فلم يعد

يقوى على ركوبها، فباعها متضررة معطلة بسوق الخردة، ليُجبَر - هذه المرة - على تقاعد فِعلي بسبب كسره دون تعويض يائسا محبطا.

كان بيت الصَّردي عبارة عن كوخ صفيحي من غرفة واحدة وصحن نصف مسقوف به ركن خُصص للطهو، ومرحاض قرب الباب. كان على بعد أمتار من العين قبالة الساحة حيث الصخب والشجار. عن يمينه حدَّاد. وعن يساره كوخ جاره "عيَّاد" يليه بائع للدجاج المذبوح، ليجد السكان أنفسهم بين مطرقة الحداد وروائح الدجائجي حيث يُذبح الدجاج، يُنتف الريش، وتُقذف الأحشاء داخل برميل معدني صدىء يعسكر به الذباب..

ارتدى الصَّردي جلبابه على عجل. انتعل بلغته بعد أن ثبَّت طاقيته على رأسه، ثم أمسك بعكازه الغليظ، وخرج يقصد الحدَّاد المنهمك في طرقه لباب حديدي مُعوجٍّ يريد تقويمه بمطرقة ثقيلة كالشاقوف يهوي بها بكل قواه جاحظ العينين يتصبب عرقا. كان الحدَّاد يعالج الباب المتضرر خارج محل عمله الصفيحي على أرض تربة متسخة دكناء حيث تناثرت أدوات الحِدادة من مطارق وغيرها، إلى جانب مشعل للحام، وآلة للقطع تراكمت حولها صفائح الحديد، ومُدًى صدئة تنتظر دورها لتُشحذ وتُصقل قبل أن تُسلَّم لأصحابها جاهزة لمَّاعة تُثير الخوف والرعب.

توقف الصَّردي على بُعد قدم من الحدَّاد، وأخذ يضرب الأرض بعكازه في توتر، فانتبه هذا الأخير متوقفا

عن خبطه للحديد، وانتصب واقفا يبتسم في وجه جاره الذي بادر بالسؤال:

ـ ما كل هذه الشدة في طَرق الحديد يا رجل؟ هذا والله لخبط يثير الأعصاب ويصمُّ الآذان!

فردَّ الحدَّاد مشيرا إلى الباب المعوجِّ وابتسامته المصطنعة لا تفارق شفتيه الغليظتين:

ـ معذرة أيها الجار الفاضل.. فهذا باب أحد الدكاكين ألحق به اللصوص الضرر كما ترى وهم يحاولون فتحه لسرقة ما بداخل الدكان، وصاحبه يرغب في استعادته قبل مغرب اليوم مُعالَجا مصبوغا مركبا في إطاره كما كان. لذا تراني أسابق الزمن لمعالجته في الوقت المطلوب حتى لا أثير غضب الزبون.

ـ لكنك تُثير غضب الجيران وأعصابهم.. هذا ليس عدلا! ردَّ الصردي منفعلا.

فخفض الحدَّاد رأسه كالمعتذر، في حين استطرد الصَّردي متسائلا:

ـ ألا تعلم أنك تؤذي جيرانك يا رجل، وتزعجهم بضوضائك؟

ـ أعلم.. لكن ما العمل والحِدادة حرفتي الوحيدة التي أعيش منها وأعيِّش عيَّالي؟

ـ تعيش على حساب راحتنـا؟ أهـذا معقـول؟ أرحنـا يـا رجـل.. لقـد حطمـت أعصـابنا بمطارقـك الثقيلـة! فأنـت لا تحترم أوقات العمل، ولا حتـى عطـل الأسـبوع! انظـر كـم ظللنا نحتمل ضوضاءك ونصبر، وما فكَّرنا فـي مقاضـاتك رفعا للضرر.

ـ صحيح.. صحيح.. أقدر لكم صـبركم هـذا.. لكـن مـا العمل؟ ما الحل؟

ـ وهل تظن أن الحلَّ بيدنا نحن؟

ـ لا طبعا.. ليس بيدكم سوى الصبر.

ـ إلى متى؟ لقد نفد صبرنا! خفِّف عنا يا رجـل.. فأنـت تعمل دون رخصة، وفي حي سكني لا صناعي.

و بينما صمت الحدَّاد مُحرَجا مُتضايقا من عتاب جاره وغضبه، انتبه هذا الأخير إلـى عنـوان كُتـب حـديثا بطـلاء أحمر قان، وبخـط غلـيظ رديء علـى قصـديرة تعلـو بـاب محل الحدَّاد، وأنشأ يقرأه كمن يتهجَّى:

ـ حـدَّاداد الرَّراحـة. ثـم التفـت إلـى الحـدَّاد يسـأله فـي غضب:

ـ ما هذا العنوان يا رجل؟ أي راحـة تُرجـى بجـوارك؟ أنت لا شك تهزأ بنا!

ـ لا حاش لله أن تكون هذه نيتي.. إنه من صُنع ولـدي الأصغر، وسأعمل على محوِه إن كان يُضايقكم، بل وأقتلع القصديرة بكاملها.

ـ اقتلعها أو اتركها.. هذا لن يغيِّر من الوضع شيئا! ثم استطرد في لهجة الناصح المحذر:

-احترم أوقات العمل يا رجل، وخفِّض من ضوضائك مراعاة للجيران! هذا مُختَصر الكلام.

ـ كـلام معقـول.. معقـول.. معـذرة.. ممعـذرة.. ردَّد الحدَّاد.

استدار الصَّردي يهمُّ بالانصراف، فإذا به يلمح امرأة عجوزا كانت تسترق السمع لِما دار بين الرجلين.. إنها أمي نجمة أو "أخبار الدوَّار" كما يلقبونها. كانت واقفة تتجسَّس عند مطلع الزقاق، وما إن التقت عيناها بعيني الصَّردي، حتى لوت عنقها بمرونة كالبومة تنظر جهة العين في مراوغة مكشوفة. فكحي سكني عشوائي مُكتظ، لم يخل الدُّوار من ظاهرة التجسُّس على الجيران، سيما في صفوف النسوة، حيث تبقى أمي نجمة أمهرهن وأشهرهن. مات عنها زوجها فتفرغت للتجسُّس على جيرانها آخذة حريتها. كانت ضئيلة الجسم، لها أذنان حادتان بارزتان كأذني الوشق، وعينان نافرتان قليلا ما تطرفان. كانت تعيش وحيدة داخل كوخها الصفيحي بعد أن غادرها أبناؤها ليُنشِئوا أسرا لهم بعيدا عن الدوَّار. لكنهم ظلوا يزورونها وينفقون عليها كأبناء بررة.

ولأنها جاسوسة مهووسة مُدمنة، فقد وجدت أمي نجمة في الدوَّار، مرتعا خِصبا لإشباع رغبتها الجامحة في التجسس على جيرانها وإذاعة أخبارهم.. فتراها ترهف السمع لكل حديث أو نقاش حتى وهي على مائدة الطعام، إذ تنهض مسرعة تكاد تسقط على وجهها للتلصص عبر شقوق الباب لا تفوتها شاردة ولا واردة. وكجاسوسة ماهرة متمرسة، كانت لها صديقات كثيرات تُطلعهن عمَّا جدَّ لديها من أخبار وأسرار في مقدمتهن العرافة أمي الهاشمية، أكبر المستفيدات.. إذ تنقش في ذاكرتها ما تنتقيه من تلك الأخبار والأسرار لتوظفها في عِرافتها المزعومة وشعوذتها.

وكما ظلت أمي نجمة تُذيع الأخبار بين جاراتها وصديقاتها، ظل هؤلاء يغتبنها اغتيابا قاسيا عندما يذكرن بُخلها وقذارتها، وعفونة كوخها الظاهرة المُقرفة.. لقد أهملت المرأة نفسها ومسكنها إهمالا مخزيا، لِتهتم بأخبار الجيران وأسرارهم في تجسس مرضي، لم يجد له أبناؤها البررة علاجا شافيا.

ما إن ابتعد الصَّردي مُحوقلا وتجاوز العين معكزا على عكازه، حتى التقط الحدَّاد مطرقته الثقيلة، واستأنف يعالج الباب المعوجَّ بشدَّة وقوة كما يُعالَج الحديد. كان الصردي يقطع الساحة صوب الجهة المقابلة للشارع العام ليجالس صديقا له يبيع المجلات والصحف عندما أبصر عن بعد، امرأة عجوزا في صراع مع أحد لصوص الخطف يحاول نتر جزدانها وهي تصرخ بأعلى صوتها طلبا للنجدة. كان اللص شابا قويا لم تستطع المرأة العجوز

مقاومته لأكثر من ثوان حتى نتر جزدانها نترا عنيفا أفقدها توازنها، فسقطت وسقط منديل رأسها، فيما لاذ اللص بالفرار راكضا كالحصان يتطاير من خلفه الغبار. كان يركض في اتجاه الصَّردي شاهرا سيفا براقا كأنه يطارد عدوا في معركة حتى خال الرجل أنه سيقطع رأسه، فرفع عكازه عاليا ليدافع عن نفسه، لكنَّ اللص راوغه ضاحكا مقهقها مواصلا ركضه ليلتحق بشريك له كان في انتظاره عند رصيف الشارع ممتطيا دراجته النارية على أهبة الانطلاق حيث ما إن قفز اللص خلفه، حتى انطلقا بأقصى سرعة يتجاوزان السيارات أمامهما في تعرُّج بهلواني مُستفز.

اختفى اللصان عن الأنظار، فسارع الناس يحتشدون حول الضحية وهي جالسة تندب حظها في ما يشبه النواح: ليتهم قبضوا عليه واسترجعت دُملجي ووثائقي! يا لَلمصيبة!

فدنا منها أحد المحتشدين يسألها قائلا:

ـ دُملجك؟ أهو من ذهب؟

فأجابت المرأة في انفعال:

ـ طبعا من ذهب وليس من قصدير! ذهب زمان خالص ثقيل، احتفظت به لأعوام طوال تحسبا لدوائر الأيام، وها قد ضاع مني في طرفة عين وأنا في طريقي لأبيعه بسوق الذهب والجواهر!

سرت همهمة أسف وسخط بين الحشد، فرفعت المرأة رأسها تُقلِّب عينيها الدامعتين في الوجوه حولها، وعادت تشكو:

ـ ضاع مني دُملجي! اختُطف مني في وَضح النهار أمام أعينكم يا رجال!

ثم شدَّت رأسها بمنديلها ويداها ترتعدان، ونهضت جاهدة تنفض عنها التراب. وفجأة، أخذت تصرخ كالمجنونة تدعو المتحلقين حولها أن يتركوها وشأنها. لكن لا أحد تحرك، بل لزِم الجميع أماكنهم إلى أن صرخ بهم الصَّردي وقد وصل لتوِّه:

ـ اتركوا المرأة وشأنها! هيَّا.. اذهبوا إلى حال سبيلكم!

فتحوَّلت الأعين نحو الرجل الذي استطرد يقول معاتبا:

ـ كان عليكم أن تقبضوا على اللص الهارب، وتعيدوا للمرأة جزدانها بدل التفرج عليها كأنها ترقِّص القِردة. هيَّا.. تفرقوا! أليس لديكم شغل تذهبون إليه؟

وفيما بدأ الجميع يتفرقون في تثاقل، تقدم شاب أنيق يتأبط كتابا، وقال يرد على الصردي:

ـ أنا والله ما أخافني اللص يا شيخ حتى لا أتصدى له، بل أخافني سيفه الطويل البراق الصقيل.

ثم أضاف في لهجة من يلقي شعرا:

-فما السبع المهابُ.. إلا مخالبُ وأنيابُ.

فرد عليه الصردي متسائلا :

-ألا ترى معي أيها الشاعر، أنكم لو طوقتم اللص جماعة لكان ألقى سلاحه مستسلما ؟

-قد لا ينجح ما تقوله يا شيخ دون مأساة أو ضرر.. فهؤلاء اللصوص مجرمون قتلة، لا يستسلمون بسهولة!

ـ مع الأسف! غمغم الصَّردي.

ثم اقترب من المرأة المحطمة اليائسة، وربت على كتفها مصبرا ناصحا إياها بما عليها فعله من شكاية لدى الشرطة علَّها تسترجع ما سُرق منها. نظرت إليه تشكره، وانصرفت تكفكف دموعها، فيما وقف الصَّردي يتتبَّع خطواتها المتثاقلة في أسف قبل أن يستأنف طريقه.

وصل الصَّردي وجهته. حيا صديقه "مفيد" بائع المجلاَّت والصحف، ثم جلس على مقعد في الخلف كالمعتاد وقد أجهده المشي على قِصر الطريق. ولتوِّه، أنشأ يحكي لصديقه حكاية المرأة العجوز مع اللص الذي نتر جزدانها، فحوقل مفيد آسفا دون تعليق، ونهض يلبي طلبات زبائن توقفوا لتوِّهم، في حين أخرج الصردي نظارته الطبية من جيبه ووضعها على عينيه، ثم انحنى يتناول جريدة ليقرأها.

لبَّى مفيد طلبات الزبائن، وطفِق يُحضِّر شاي الصباح المألوف. كان مفيد من ساكنة الدوَّار، جمعته بجليسه صداقة خالصة منذ أعوام. مارس عدة مهن قبل أن يستقر بائعا للمجلات والصحف أمام متجر مُقفل قُبالة محطة للنقل الحضري.

أنهى مفيد تحضيره للشاي. ترك السكر بذوب في الإبريق، ثم انحنى بدوره يلتقط جريدة، وأنشأ يقلِّب صفحاتها باحثا عن عناوينها البارزة كعادته إذ سرعان ما توقَّف عند عنوان بصفحة الجرائم ليجهر بقراءته:

-ستيني يقتل أخاه غدرا ويحز رأسه بسبب نزاع حول الإرث!

- هذا ما تخلِّفه بعض المواريث مع الأسف.. عداوة، نزاع، أو قتل! علق الصَّردي.

-أتساءل هل لا زالت عقوبة الإعدام تنفَّذ فعلا في بلدنا ؟

- عقوبة الإعدام، لن تَحدَّ من جرائم القتل مهما كانت قاسية وحشية! قال الصَّردي.

أعاد مفيد الجريدة إلى مكانها، ثم قام يلبي طلب زبون، في حين واصل الصَّردي قراءته للجريدة بين يديه إلى أن تعِبت عيناه، فأزال نظارته، وتفرغ للتحدُّث إلى صديقه ومشاركته شُرب الشاي في ذلك الصباح الربيعي المشرق، في انتظار أذان الظهر.

الفصل الرابع: أسرة عيَّاد

جلس عيَّاد.. جار الصَّردي، إلى جانب زوجته وبناته الثلاث حول المائدة يتناولون فطورهم في صمت وسط غرفتهم الوحيدة حيث يأكلون ويشربون وينامون ... وكالعادة، لم يخرج فطورهم عن الشاي، والخبز، وحبات الزيتون.

أنهت الأسرة فطورها، فحملت البنت الصغرى المائدة إلى الركن المخصص للطهو بالصحن، ثم عادت تحمل صينية عليها طابق من العدس لتنقيته من الشوائب والحصى كما أمرتها أمها. وضعت البنت الصينية على الحصير، فتربعت البنات حولها، وطفِقن ينقين العدس على مقربة من باب الغرفة حيث يكثر ضوء الشمس، بينما أنشأت الأم تغربل الطحين لتعجن الخبز. أمَّا عيَّاد، فتراجع إلى الخلف، وجلس مُسنِدا ظهره إلى الجدار منكمشا داخل جلبابه الأسود الفضفاض كاسف الوجه كعادته منزعجا متضايقا، يقاوم رائحة البول المقززة المنبعثة من فراش ابنه الأصغر النائم بأقصى الغرفة على مقربة منه يغط في نومه.

كان عيَّاد شيخا عجوزا فانيا متهدِّما. تقعَّر صدغاه وخداه، فبرزت وجنتاه، وغارت عيناه، حتى بدا كمن يعاني المجاعة. فبلوغه السبعين من العمر، يُعدُّ معجزة بالنظر لِما قاساه الرجل من شظف العيش، والمرض، ونكد الأولاد ... نزح عن قريته بحثا عن عيش كريم يسير بالحاضرة، فكان نصيبه أن استقر بكوخ صفيحي بدوَّار الشوك؛ كوخ ضيق من غرفة وصحن، لا يتَّسع لأسرة من

تسعة أولاد كُتبت لهم الحياة.. خمسة أبناء، وأربع بنات رأى معظمهم النور بالدوَّار. ولِخيبته، غادر الأبناء المدرسة مبكِّرا وانحرفوا انحرافا خطيرا غذَّاه المحيط، والحرمان، والفقر.. فالابن البكر، الهادئ الطيِّب، أسرف في تعاطيه المخدرات، حتى صارت تعتريه نوبات الفصامي، فيصُب جام جنونه على الجميع بالضرب، والشتم، لا ينجو من هيجانه أحد حتى أبواه. لقد عانت معه الأسرة ألوانا من العنف، والرعب، وتحطيم الأواني. ومخافة أن يمتدَّ جنونه إلى ما هو أقبح وأخطر، حرِصت الأسرة على مراقبته حتى وهو نائم غارق في نومه. احتار الجميع في أمره، وصار أبوه ينظر إليه كابتلاء وعقاب من الله. أمَّا الأم، فتلجأ إلى البكاء دارفة دموعها لا حيلة لها.

كانت العرافة أمي الهاشمية قد نصحتهم بأخذ المريض إلى ضريح يُؤخذ إليه مرضى الجنون والصرع، وتركه هناك مُكبَّلا محبوسا بإحدى مطاميره حتى يُشفى بعد أن فشِلت، وفشِل فقيهها في تهدئته وعلاجه. غير أنه، وفي الوقت الذي عزم فيه الأبوان على العمل بنصيحة العرافة، خرج الابن من البيت ذات صباح في غفلة من الجميع ولم يعد. فتشوا عنه قرابة الشهر، لكن دون جدوى.. فقد تاه في أحياء الحاضرة الآهلة وشوارعها. تأسف له الجميع، وقلِقت عليه والدته، لكن مع مرور الشهور والسنين، حلَّ اليأس محلَّ الأمل، واعتُبر المريض المُختفي في عِداد المفقودين.

هكذا كان مصير الابن البكر. أمَّا أخواه الثاني والثالث اللذان يليانه سنا، فانحرفا مجرمين خطيرين كانت عاقبتهما

السجن لظلوعهما في جريمة قتل واغتصاب، فبقي الابن الرابع وأخوه الأصغر يواصلان العيش داخل الأسرة إلى جوار أبويهما وشقيقاتهما.

كان الابن الرابع لا يزال غارقا في نومه خارج الغرفة بالصحن قرب المرحاض. كان عاطلا منحرفا عاقا، بل وأشد إخوته عقوقا. أمَّا البنات، فهاجرت كُبراهن إلى إيطاليا لتعمل هناك، وبقيَّت الأخريات الثلاث قعيدات البيت إلى جوار أمهن؛ أم صبور كرست حياتها الزوجية البائسة للإنجاب، والإرضاع، وأشغال البيت على مدى الأعوام لا راحة ولا استجمام كأنها آلة بشرية، حتى تعِبت، وأصابها الوهن، والمرض، والهُزال.

شبَّت البنات دون حِرفة ولا تعليم، فلازمن البيت حالمات بحياة زوجية قد تخرجهن من حياتهن المملة البائسة، ولو أنَّ الحلم يبقى حلما في وُجود إخوة منحرفين مجرمين تخطَّت شهرتهم الدوَّار، فجلبوا للأسرة الفضيحة والعار. فلطالما تساءلن في سِرهن عمَّن ذا الذي سيرضى لنفسه مصاهرة عائلة تسبقها سمعتها السيئة كعائلتهن، وإن جمعن بين جمال الصورة والخلق الحسن.

كذلك رأت البنات في إخوتهن المنحرفين عَقبة في طريق زواجهن ومستقبلهن قد لا تجتازها سوى سعيدة.. البنت الكبرى بهجرتها إلى أوربا؛ سعيدة الفتاة الجريئة الطموحة الباحثة عن مستقبلها. اشتغلت في البداية مساعدة بصالون للحلاقة والتجميل، قبل أن تحصل على عقد عمل بإيطاليا بمساعدة مشغِّلتها صاحبة الصالون، وتهاجر

لتعمل منظفة بأحد فنادق "ميلانو" المصنَّفة مقابل أجر محترم خصَّصت قسطا منه لمساعدة أبيها على إعالة أسرته الفقيرة، وإراحته من عمله كبائع خضر متجوِّل تقدمت به السن وتدهورت صحته.

وبقدر ما أدخلت سعيدة الفرحة والرضى على أبويها وشقيقاتها، بقدر ما أثارت حنق وسخط إخوتها المنحرفين لتشككهم في طبيعة عملها، واحتمال سقوطها في شباك الدعارة المنظمة منساقة وراء الكسب المختصَر السريع على حساب شرف العائلة. لكن، عكس كل الشكوك والظنون، حافظت البنت المهاجرة على عفتها وَرِعة فطنة تتحدى المغريات والصعاب، لا هدف لها ولا مسعى سوى العمل، وكسب المال الحلال.

سُمع صوت مألوف ينادي عند الباب :" زهير.. زهير".

فدنا عيَّاد من ابنه الأصغر النائم على مقربة منه ليوقظه:

- زهير.. استيقظ.. استيقظ يا ولد.. ألا تسمع نداء صديقك حمزة؟

فاستيقظ زهير كالمنزعج، ونهض يغادر الغرفة في خجل صوب المرحاض ليغتسل ويغيِّر ملابسه المبللة المهترئة من البول. كان زهير طفلا يافعا يعاني التبوُّل اللاَّ إرادي؛ طفلا مهذبا، صموتا يُصغي ويُلاحظ ولا يُكثر

الكلام. ترك المدرسة بدوره، وأخذ يمارس مهنا هامشية لكسب بعض النقود.

اغتسل زهير وغيَّر ملابسه، ثم غادر البيت في هدوء ليتلحق بصديقه الذي ما انفك يناديه بأعلى صوته.

ـ أمَا كان عليك أن تصبر حتى أغتسل وأغيَّر ملابسي؟ تساءَل زهير.

ـ اشتد عليَّ الجوع هذا الصباح فلم أستطع الصبر.

ـ لا بأس.. فأنا أيضا جائع.. هيا بنا لنتناول فطورنا!

فانطلق الصديقان صوب خيمة تبيع صاحبتها حساء الشعير والخبز والشاي بأقصى شمال الساحة، وجلسا يحتسيان الحساء الساخن ويأكلان الخبز. كانت تربط الطفلين اليافعين صداقة الطفولة البريئة الصادقة.

كان حمزة يسكن كوخا صفيحيا شرق الدوَّار. توفيت أمه وهو في السابعة من عمره، ففقد بموتها العناية، والعطف والحنان ... بل واستحالت حياته جحيما بقدوم زوجة أبيه الجديدة؛ زوجة قاسية ظالمة لم تحتمل وُجوده، فظلت تُسيء معاملته وتُوغر صدر أبيه عليه، حتى صار يخلي لها البيت متسكعا في الطرقات طوال النهار بعد أن غادر المدرسة، لا يعود إلاَّ بالليل متسللا ليأكل ما تبقَّى من طعام، ويستلقي على فراشه متوجسا خائفا ينتابه الشعور بالغربة والضيم في بيت رأى فيه النور.

نهض الصديقان بعد أن أنهيا فطورهما، وتوجها إلى مدار خارج المنطقة حيث يشتغلان في مسح زجاج السيارات عند إشارات الوقوف من الصباح إلى المساء في خِفة وحماس لا أدوات لديهما سوى خِرق المسح والتنظيف، قليلا ما يُرغب في خِدمتهما فيُنتفَحان درهما أو درهمين.

ظل الصديقان يعملان بحيوية ونشاط لا يستريحان إلاَّ عندما يشتد عليهما الجوع والتعب عند الظهيرة، فيتوقفان عن العمل ليتناولا غداءهما ويستريحا في انتظار أن يستعيد المدار حركيته.. فما كان سعيهما سوى كسب النقود في جوِّ من الحرية بلا قيود.. يقضيان النهار في الجري وراء السيارات إلى حلول الظلام، وفي طريق عودتهما ـ وقد اقتسما ما جنياه من دراهم ـ يعرِّجان على مطاعم الساحة ليملآ بطنيهما بأكلة أو حريرة مع خبز وبيض مسلوق كوجبة عشاء. بعد ذلك يفترقان مُتعبين مكدودين لا يرغبان سوى في النوم.

كان الصديقان يعملان طوال الأسبوع إلاَّ يوم الجمعة، حيث يستحمَّان ويستريحان، بل ويتسليان بألعاب " الفيديو " المنتشرة قاعاتها بالمنطقة تجتذبهم عوالمها الافتراضية.

خرج زهير إلى عمله صحبة صديقه حمزة، فبقي الابن النائم بالصحن قرب المرحاض.. أو المهدي ـ كما سمَّاه أبوه يوم عقيقته ـ لا يزال نائما ناشرا رجليه فاغرا فاه يتنفَّس نافثا رائحة الكحول المنفرة. كان مستلقيا على ظهره بذراعيه المفتوحتين كالمصلوب. وكعادته، كان نائما

بلباسه المتسخ القذر وحذائه العسكري الثقيل. ومن حين لآخر، يطلق غرغرة كالحشرجة، فيتمناها أبوه حشرجة تُفضي إلى ما تُفضي إليه لِما يُضمر له من حَنق وكُره لعقوقه وسلوكه العدائي العصبي.. فتراه يصرخ ثائرا لأتفه الأسباب صراخا مدوِّيا يثير سخط الجميع، فيدعون عليه في سرهم بأشد البلايا وأقبح الأسقام. لكن، لا بلية أصابته، ولا سقم أخرس له اللسان. بل ظل على حاله سليما صحيحا، عدائيا مزعجا. كان الصردي قد صادفه ذات يوم يتسكع بعيدا عن الدوَّار، فاغتنمها الرجل فرصة لينصحه نصيحة الجار لابن جاره في لهجة الناصح الواعظ بأن يكفَّ عن صراخه في وجه والديه وإزعاج الجيران. ثم استطرد: «لا شك أنك تعاني اضطرابا عصبيا متجذرا كما يبدو من سلوكك! وهذه حالة خطيرة مقلقة ليس لها من سبب ظاهر سوى المخدرات والكحول. لذا، أنصحك بالإقلاع عن هذه السموم قبل فوات الأوان! عالج نفسك يا ولدي.. أتريد اللحاق بأخيك المريض المختفي، أو أخويك السجينين القابعين في السجن؟!» فغمغم المهدي شاكرا جاره على نصيحته في فتور، ثم استدار يستأنف تسكعه متثاقلا يحرك رأسه الغليظ، كأنما ينفض ما علِق بذهنه من نصائح الرجل كابيا وفيا مُخلصا لسلوكه المنحرف، وخواطره الشيطانية الشريرة.. فذات ليلة عاصفة ظلماء، بينما كان عائدا إلى البيت عند منتصف الليل يترنح سكران طافحا، خطرت له فكرة إضرام النار في بيت أبيه بُغية التخلص منه، ثم الهرب بعيدا عن الدوَّار؛ فكرة طالما راودته، وها قد جاء وقت تنفيذها، إلاَّ أنها سرعان ما تلاشت مع الرياح العاصفة، حينما سمع هاتفا يهتف به

بصوت كالفحيح المخيف كأنه يحذِّره: «المهدي.. دي.. دي..!» فالتفت كالمذعور ينظر خلفه وقد صحا من سكره، وانتصب شعر رأسه. لكن، ما مِن أحد.. كان الزقاق خاليا حتى من القطط، فأسرع يهرول هاربا كأنَّ شبحا يلاحقه يريد الانقضاض عليه. وما إن دخل البيت، وصك الباب خلفه، حتى تهالك على مرقده قرب المرحاض متوجسا تتلاعب به هلاوسه.

كان المهدي يغادر البيت في الصباح لا يعود إلاَّ بعد منتصف الليل ليلتهم ما تبقَّى من طعام العشاء وينام ملء جفونه بعد أن صرف نهاره متسكعا، أو مُجالسا رفاق السوء. كان أبوه قد فرض عليه النوم بالصحن كما فرضه على إخوته من قبله، وحرِص على إغلاق باب الغرفة بمزلاج حديدي عندما تهم الأسرة بالنوم، ولو أن ذلك لم يكن مُطمئِنا لتفادي شر الولد المنحرف، ولا مُريحا مُجنبا سماع صوته الجهير المزعج وهو يثرثر لوحده حاقدا ناقما عمَّن نبذوه واحتقروه.

أسقطت إحدى البنات آنية معدنية ثقيلة وهي ترتب الأواني بالركن المخصص للطهو بالصحن، فأحدثت ضوضاء أيقظت المهدي من نومه مذعورا ساخطا. لكنه ما لبث أن زحف لِيجر إليه مائدة الفطور. جلس على فراشه المبعثر المقرِف مثبتا المائدة بين رجليه، ثم أخذ يتفحَّص ما تبقَّى فوقها من طعام متسائلا في ابتسامة ماكرة ساخرة:

ـ ماذا أرى على هذه المائدة البائسة المتهالكة المرقعة؟ كالعادة.. كِسرة خبز بائت، حبات زيتون، وإبريق شاي لا طعم له ولا لون! فلا زبدة، ولا جبن، ولا مربَّى! ما هذا التقشف يا رب؟! ما هذه المجاعة؟!

ثم أدخل كِسرة الخبز بكاملها في فمه، أتبعها بالشاي، وجعل يمضغها كوحش جائع شره. في هذه الأثناء، كان ما يُطبخ على الفرن للغداء، قد بدأ بخاره يتصاعد من القدر ناشرا رائحة العدس، فعاد المهدي إلى سخريته يريل كالطفل الرضيع ويقول:

ـ ما هذا الذي يُطبخ؟ كسائر الأيام طبعا.. إمَّا عدس، أو فول، أو فاصوليا، أو مرق بالخضر. والكل بلا لحم، كأننا نباتيون متشدِّدون! فلا مُقبلات ولا مُؤخرات! أمَّا الفواكه بنوعيها.. الرطبة واليابسة، فلا نراها سوى عند بائعيها! تغذية السجون والله لأحسن من تغذيتنا!

لم يرد عيَّاد على انتقادات ابنه الساخرة، بل رفع صوته يأمر بنته الصغرى أن تُحضِر مِلف حوالات أختها سعيدة، لمراجعة نُسخها وإعادة ترتيبها. فلئن تناسى إخوته أمر هذه الأخت المهاجرة المغتربة، فقد ظل المهدي يكنُّ لها كل الحسد والكراهية.. فما إن يُذكر اسمها، حتى يثور كالمجنون ويسارع ليغادر البيت في جفول. لكنه لم يتزحزح عن مكانه هذه المرة، بل فطِن لحيلة أبيه، وأنشأ يُدندن كأنما يتحاشى سماع أخته وهي تردد تواريخ حوالات أختها ومبالغها مستجيبة تنفِّذ أمر أبيها. لم تنفعه دندنته، فصرخ آمرا أخته أن تصمت، وإلاَّ قلب المائدة

أمامه رأسا على عقب ببرادها وكؤوسها، فصمتت البنت مرتعبة، لكنَّ أباه صاح يقول له:

ـ اسمع أيها الوغد الحسود الحقود.. أتمم فطورك واخرج من هنا!

ـ أتسمي هذا فطورا؟!

فرد عليه أبوه:

ـ فتش لك عن شغل وتناول أحسن منه.. هاجِر إلى حيث العيش أفضل.. افعل كما فعلت سعيدة.

ـ أوف! سعيدة.. سعيدة.. رسائل سعيدة.. حوالات سعيدة.. إنها لا ترسل لكم سوى فُتات ما تكسبه هناك، ومع ذلك تطبلون لها وتزمرون حتى دون أن تعلموا مصدر هذا الفتات.. أحلال أم حرام؟!

فقاطعه أبوه ثائرا:

ـ أقفل فاك القذر أيها الكلب! لا تذكر ابنتي بسوء، أو تتهمها بما هي بريئة منه! فإن كانت ترسل لنا الفتات ـ كما تقول ـ فأنت لا فتات يُرجى منك ولا حُثالة.. إذ لو كنت مكانها، لَما فكرت سوى في نفسك.. إشباع رغباتك الدنيئة. لقد كَبُر عليكم أنت وإخوتك أن تشتغل أختكم بالخارج وتكسب المال، فرحتم تطعنون في عرضها!

ـ أنت تدافع عنها لأنها ترسل لك النقود.. تُكمِّم فاك بحوالاتها البريدية. أمَّا نحن، فنتكلم غيرة عن سمعة العائلة

وشـرفها.. فالحلاَّقـة صـاحبة الصـالون التـي كانـت وراء هجـرة ابنتـك المصـونة إلـى إيطاليـا، تعمـل وسـيطة فـي الدعارة لحساب شبكة دولية تحت غِطاء الحِلاقة والتجميل كما يُشاع!

ـ هذا كذب.. إشاعة لا صحة لها ولا وُجود أنـت مـن اختلقتها! أمَّا سمعة العائلة، فما مِن أحد شوَّهها سـوى أنـت وإخوتك المجرمين العققة!

ما كـاد الأب يُتمم كلامـه، حتـى اجتاحتـه نوبـة سـعال هزَّت صدره هزا عنيفا خانقا، لكنه ما لبـث أن عـاد يهـاجم ابنه وقد احمرت عينـاه، وبـدأت يـداه المعروقتـان ترتعـدان من شدة التوتر والغيظ، فاستطرد يقول:

ـ كلكم نكد في نكـد! عقـوق فـي عقـوق! نغَّصـتم علـيَّ حياتي! ليتني ما أنجبتكم! ما رأيت وُجوهكم! رجوت الله أن تكبروا أبناء صالحين ناجحين أتباها بكـم؛ أبنـاء بـررة أجـد فيكم سندا مُعينا في كِبري، لكنكم خيبتم رجائي!

ـ لا تنس أننا معيونون!

ـ معيونون؟! علامَ تصيبكم العين أيها الأخرق الرقيع.. أعلى وسامتكم، أم غنـاكم، أم مقامـك الرفيـع؟ فـالعين التـي ستجرؤ علـى إصـابتكم، ستصـاب حتمـا بـالعمى الأسـود. وأنت الذي تتحدث عن العين.. هل نظرت مرة إلـى هيأتـك في المرآة؟ فمن يراك، يظنك تنام في مزبلة!

فضرب الولد المائدة أمامه بيده الغليظة حتى تصادمت الكؤوس فوقها وانكفأ براد الشاي، ثم صاح يحذِّر أباه قائلا:

ـ خير لك أن تمسك لسانك، وإلاَّ جعلتك تندم!

حينها، نصحت الزوجة زوجها بالخروج إلى عتبة البيت تجنبا لشر ولده وبذاءته. تردد عيَّاد قليلا، ثم نهض يطلب مقعده الصغير الذي اعتاد اقتعاده. وفي طريقه إلى الباب، التفت يحدج ابنه في سخط وغضب، وخرج وهو يسعل سعاله الخانق المزمن.

خرج عيَّاد، فبدا الارتياح على الزوجة وبناتها.. فهن يعرفن ما قد ينجم عنه شجاره مع أبنه العاق.. فهذا الكلب المسعور ـ كما ينعتنه في غيابه ـ سوف لن يتردد في قلب المائدة أمامه ثائرا هائجا يتلفَّظ بكلامه الساقط البذيء.

هدأ سعاله وهو جالس بعتبة كوخه، فأخرج عيَّاد سيجارة من سجائره الرخيصة من جيبه وأشعلها، ثم أخذ يدخن حذِرا من أن يُعاوده السعال. لقد اعتاد الجلوس قبالة الساحة شاردا، أو متفرجا على ما يدور بالعين المكتظة أمامه.. فبعد تركِه لعمله كبائع خضر متجوِّل، أصبح الرجل لا يبتعد عن مسكنه إلاَّ للضرورة منطويا على نفسه لا شيء يجمعه بجيرانه سوى تحية عابرة مُختَصرَة. فطبعه الاجتماعي المرِح أعوام شبابه الأولى بالبادية، قد تلاشى مع نشأة الأولاد وقساوة العيش.

و بينما جلس عيَّاد يدخن مقاوما سعاله الحاد، خرج ابنه المهدي وصفق الباب خلفه صفقا عنيفا كاد يقتلعه من إطاره المتصدع، فانفزع أبوه، والتفت يصرخ في وجهه منفعلا متسائلا:

ـ ألا تستطيع إقفال الباب بهدوء يا حيوان؟!

قطَّب الابن يلوي شدقيه، فاستطرد أبوه يزجره:

ـ تحرك من أمامي! هيَّا ماذا تنتظر؟ ماذا تريد؟

ثم أخرج بضعة دراهم من جيبه على مضض، ورمى بها في الأرض متناثرة، فانحنى عليها ابنه يلتقطها في تثاقل المتكبر وأبوه يذكره:

ـ لا تنس أنها نقود سعيدة.. مصروف جيبك.

ـ ليتها تعود يوما، فأعاقبها العقاب اللازم! غمغم المهدي.

ثم نظر إلى ما التقطه من دراهم في ازدراء، وسأل أباه قائلا:

ـ أتسمي هذا مصروف الجيب.. ثلاثة دراهم؟! فلولا كرم رفاقي وسخاؤهم، لما دخَّنت لفيفة حشيش واحدة!

ـ اذهب وعش على كرمهم وسخائهم بقيَّة حياتك وأرحنا منك!

أَدخل الولد الدراهم في جيبه، وانصرف يتمايل بكتفيه العريضتين، فغمغم أبوه داعيا عليه في ضغينة وحقد.. إذ لو استطاع، لَما تردد لحظة في خنقه حتى الموت.

لم يهتم الجيران لِشجار عيَّاد المعتاد مع ولده العاق إلاَّ أمي نجمة " أخبار الدوَّار" التي خرجت تسترق السمع عن بعد، علها تلتقط ما قد يخرج عن المألوف.

أشعل عيَّاد سيجارة ثانية كابحا سعاله، وعاد يتساءل في نفسه عن كيف ستكون حاله وحال أسرته عندما تنتهي عقوبة الولدين السجينين، أو يتم الإفراج عنهما لحسن سلوك مصطنع؟ كيف له أن يواجه أبناء منحرفين مجرمين ـ بمن فيهم المهدي ـ إذا ما أطال الله في عمره؟ تساؤل ما فتئ يؤرِّقه ويقضُّ مضجعه ...

الفصل الخامس: حفيظ

صلَّى الصردي العصر بالمسجد كعادته، واتجه صوب شارع فرعي حيث يعمل ابن أخيه حفيظ حارسا ليليا للسيارات والدراجات النارية. ففضلا عن زياراته لابني أخيه القاطنين بالجهة الخلفية للدوَّار متفقدا أحوالهما بعد وفاة أبيهما، اعتاد الصردي مجالسة الابن الأصغر حفيظ بمجلس عمله لِما يكِنُّ له من معزَّة وعطف.

كان المجلس كالوِجار في شكله، مسقوفا مختَصرا في مقعدين مُسندين إلى جدار عمارة مُجمَّع سكني بذلك الشارع الفرعي في موقع يسمح للحارس مراقبة ما تحت حراسته من سيارات ودراجات مركونة بالرصيف المقابل أمامه. حضَّر حفيظ الشاي بأوانيه البسيطة، وجلس إلى جانب عمه يحادثه حديثه المتقطع لطبيعة عمله. كان حفيظ شابا خلوقا مهذبا. فقد أمه صغيرا، فاعتنى به أبوه وأخوه الأكبر إلى أن صار شابا يعتمد على نفسه. تسرَّع أبوه، وزوجه فتاة قروية وأمنيته أن يفرح بحفيد أو حفيدة من صُلبه كما فرِح مع أخيه من قبله، إلاَّ أنَّ المَنية حالت دون تحقيقه لأمنيته، فرحل عن الدنيا تاركا ولديه يقتسمان كوخا من حجرتين ضيقتين وصحن.

كان الابن البكر يعمل بالميناء مقابل أجر بالكاد يكفيه لإعالة أسرة من زوجة وأربعة أولاد، لكنه ظل مستقرا في عمله. أمَّا حفيظ، فلم يحظ بشغل دائم يضمن له عيشه واستقرار حياته الزوجية، سيما وقد أثمرت مولودا أنثى بعد عامها الأول. كان حفيظ قد عمِل بمصنع للأحذية، إلَّا أنه، ولسوء حظه، أقفل المصنع أبوابه معلنا إفلاسه، ليجد

نفسه عاطلا عن العمل يشارك وأسرَته الصغيرة أخاه معيشته البسيطة في تكافل عائلي.

لم يرض حفيظ بوضعه المعيشي المشترك.. إذ بدأ يخجل من نفسه مع توالي الأيام والشهور مُلقيا باللوم على حظه العاثر أمَّا زوجته، فما انفكت تحثه على المزيد من الجُهد في بحثه عن شغل يؤمِّن لهم معاشهم.. فقد أصبح الوضع يقلقها ويثير أعصابها، حتى صارت لا تحتمل صراخ طفلتها، فتنهال عليها بالضرب لا مُنقذ لها سوى زوجة عمها التي تسارع لتبعدها عن الأم الثائرة، مُعاتبة تُهدهد الصغيرة الباكية الصارخة محاولة إسكاتها.

ظل حفيظ يُجهد نفسه بحثا عن شغل حتى لا تبقى أسرته عالة على أخيه الأعيل المحدود الدخل.. يخرج في الصباح الباكر ليطوف بالمناطق الصناعية معرِّجا على مكتب الشغل لا يعود إلاَّ مع غروب الشمس جائعا متعبا محبطا. ومع تعاقب الشهور، بدأ اليأس ينال منه، وبدأت تراوده فكرة الهجرة إلى أوربا ليشتغل ويُعيل أسرته، ولِم لا العمل على إلحاقها به في تجمُّع أُسري.

رحَّبت الزوجة بفكرة زوجها أيَّما ترحيب، وقالت:

ـ ولِم لا؟ انظر إلى بنت عمي نادية، وما صارت عليه من رغد العيش ورفاهيته بفضل تحويلات زوجها العامل بإيطاليا! فهذه البدوية التي كانت ـ إلى زمن قريب ـ تسوق الماشية شعثاء حافية القدمين، أضحت اليوم تسوق سيارة فارهة، وترتدي أغلى الملابس وأفخرها!

حكايــة مُختصَــرَة مُشــجِّعة زادت مــن عــزم الــزوج وحماسه لفكرته، فأنشأ يهيء نفسه لهجرة سرية إلى أوربـا عبـر المتوسـط ولِتسـاعده، باعـت زوجتـه حِليَّهـا الذهبيـة محفِّزة إياه على المُضي قدما متوكلا على الله.

كانـت لحظـة عصيبة مؤثرة علـى حفيظ وهو يضـم طفلته الصغيرة إلـى صـدره ويقبلهـا قـبلات الـوداع. كـان الوقت صباحا. وبعد أن أوصى أخـاه برعايـة أسـرته، ودَّع حفيظ الجميع، وسافر إلـى طنجـة حيـث ينشـط المتـاجرون في تهريب البشر إلى الضـفة المقابلـة علـى طـول السـاحل الشمالي.

وصل حفيظ وِجهته وكله إقدام وعزم، إلاَّ أنه، ولسـوء حظه، ستبوء محاولته الأولـى بالفشـل، بـل ونجـا بأعجوبـة من غرق جمـاعي علـى مـتن قـارب خشـبي متهالـك اكـتظ بداخله مهاجرون سريون تركوا أوطانهم وركبوا البحر في جوف الليل تجتـذبهم أضـواء أوربـا المتلألئـة كـالنجوم فـي السماء هناك في الأفق القريب البعيد.

خسِـر حفـيظ معظـم نقـوده فـي هجـرة سـرية فاشـلة، فاضطر إلى العمل مُياوما مساعدا بأوراش البناء ضـواحي طنجة كي يعيش، في انتظار فرصة ثانية مواتية لتكرار ما أتى من أجله. وأثناء عمله بإحدى الأوراش، تعـرف علـى شاب نيْجري يدعى" جوناس" له نفس حلمـه وطموحـه، إذ سـرعان مـا سـتجمع بـين الشـابين صـداقة أخويـة جعلتهمـا يتشاركان العيش والسكن بحي شعبي، بعـد أن كانـا ينامـان بالورشة وسط أدوات البناء.

كان جوناس شابا طيبا، مرحا ضحوكا. هاجر بلده أملا في الوصول إلى أوربا قاطعا الصحراء بمخاطرها.

وعلى غرار حفيظ، كاد يلقى حتفه في مغامرته الأولى غريقا مجهولا بقعر المتوسط تنضاف جثته لآلاف الجثث.

وتمضي الأيام والشهور والصديقان يعيشان ويشتغلان معا في البناء - على صعوبته ومخاطره - إلى أن اختفى جوناس فجأة.. فذات صباح، لم يقو حفيظ على الذهاب إلى عمله بسبب العياء وقروح في يده، فترك صديقه يذهب لوحده، إلاَّ أنَّ هذا الأخير - وعلى غير العادة - لم يعد إلى البيت مساء ذلك اليوم، ما استغربه صاحبه ولبث ساهرا طوال الليل ينتظر عودته في قلق، حيث ما إن جاء الصباح، حتى خرج يبحث عنه في الأماكن التي اعتاد الصديقان ارتيادها، ويسأل عنه بمحيط الميناء وأوراش البناء، لكن ما مِن أثر ولا خبر يعيدان الأمل.

مضى شهران على اختفاء جوناس، فبدأ حفيظ يشعر بالقنوط والقلق في وحدته، سيما وفرص الشغل بأوراش البناء التي تمكِّنه العيش وأداء واجب الكراء، أضحت نادرة مع تزايد الطلب.. حيث يحتشد الراغبون في العمل مع بزوغ الفجر في طوابير تحكمها الأذرع القوية. أمَّا ما قَدِم من أجله، فعليه المزيد من التقشف والصبر علَّه يوفِّر أدنى ثمن الإبحار داخل قارب مكتظ مزدحم، في مخاطرة ثانية بعد فشله في الأولى.

ذات يوم، وبينما كان حفيظ منهمكا في عمله بإحدى الأوراش، هوى لوح من ألواح البناء الثقيلة، فأصابه بكسر في ذراعه اليمنى بعد أن حاول التصدي له، ليتم حمله إلى المستشفى لتلقي العلاج. ولِخيبته، لم يتلق تعويضا عن الحادث، ولا عناية من أرباب الورشة.

أنهى حفيظ فترة علاجه بعد أن أزالوا له جبيرته، إلاَّ أنه لم يعد يقوى على العمل بأوراش البناء، ولا التدافع بمداخلها خوفا على ذراعه التي ما فتئت تؤلمه كأنَّ الكسر لم يلتئم بعد.

مساء ذات يوم، وبعد نهار آخر من التسكع بلا شغل، عاد حفيظ إلى مسكنه متعبا حائرا لا يدري ماذا يفعل. ولِشدة تعبه، تهالك لتوِّه على فراشه لينام حتى دون أن يغيِّر ملابسه، وراح يفكر في أسرته وصديقه المختفي إلى أن استسلم للنوم مستلقيا على ظهره وسط غرفة مُغلقة يسودها الظلام. أثقله النوم ـ وقد مضى هزيع من الليل ـ فرأى نفسه يتمشَّى في شارع حاضرة أوربية حيث تتجلى مظاهر الحضارة والعمران في أرقى درجاتها. كان الوقت مساء والأنوار تسطع في كل مكان مضيئة مشعشعة كالشمس وسط النهار. انبهر حفيظ بما رآه من بنايات شاهقة تلامس الغمام، ومتاجر أنيقة متناسقة ونظافة ونظام ... انعطف إلى شارع فرعي، فإذا به يلمح عن بعد شابا يشبه صديقه جوناس يتقدم لدخول إحدى الحانات، فصاح يهتف به:

ـ جوناس! جوناس !

لكنَّ الشاب لم يلتفت، بل دخل الحانة حانيا رأسه كأنَّ النداء لا يعنيه، فهرول حفيظ ليلحق به، إلاَّ أنَّ زبونا منعه دخول الحانة معترضا سبيله عند الباب. كان الزبون رجلا ضخما منفوخ البطن موشوم الذراعين والصدر، يمسك في يده الغليظة زجاجة جِعة. جرع جرعة من جِعته، وتطلع يحدِّق إلى حفيظ مُصعِّدا فيه بصره بعينين جاحظتين تقدحان شرا وازدراء، ثم قال له رافعا صوته الخشن في لهجة ساخرة:

ـ لقد أخطأت المكان أيها المهاجر الغريب!

فارتفع صوت من الداخل يقول : 《 بل أخطأ القارة بكاملها.

فضجَّت الحانة قهقهات مؤيدة ساخرة، إذ لم يكن أمام الشاب الغريب، سوى أن تراجع إلى الوراء، وانصرف يجر قدميه في خيبة وصدى القهقهات من خلفه يلاحقه.

صُدم حفيظ لِما تعرض له من سلوك عنصري وهو يمشي كالتائه لا وجهة له، إلى أن توقف عند نافورة بلَّورية شفَّافة جذابة سُلطت عليها أضواء كاشفة ملونة، فزادتها جاذبية وبهاء.

كانت منتصبة شامخة وسط ساحة تحيطها مقاه فاخرة بطاولاتها ومقاعدها وأرصفتها الرخامية. ولشعوره بالتعب من فرط المشي، توجه حفيظ إلى أحد المقاهي وجلس إلى طاولة شاغرة بالرصيف، ثم أنشأ يتتبع حركات مياه النافورة أمامه في انبهار وإعجاب وهي ترتفع عاليا لتسقط

في حوضها الدائري منسجمة متناسقة تصاحبها الموسيقى في حركاتها وسكناتها.

ومع مرور الدقائق، أدرك المهاجر أن النادل يتجاهله تجاهلا صريحا، وظل يمر من أمامه مُلبيا طلبات الزبائن من بني بشرته نشيطا مبتسما غير مكترث لوجوده. ولمَّا طال تجاهل النادل له كزبون غير مرغوب فيه، نهض حفيظ، وغادر المقهى يتمتم غاضبا ساخطا لا يفتأ يلتفت إلى النافورة النشيطة المبهرة الساحرة.

توقف حفيظ عند محطة القطار بعد مسير طويل، فدخلها وجلس على مقعد شاغر كمسافر بلا متاع ينتظر قطاره في تمويه أشعره بالأمان والحنين إلى بلده ودفء أسرته.

تراجعت حركية القطارات وصافراتها مع تقدم الليل، كما تراجعت أعداد المسافرين، فنهض حفيظ، وغادر المحطة عائدا إلى مسكنه. وبينما كان ينزل الدرج المُفضي إلى خارج المحطة، تعرض لاعتداء مفاجئ من قِبل شبان مخمورين دفعوه من الخلف حتى كاد يسقط على وجهه لولا أن أمسك في آخر لحظة بقضيب الدرابزين النحاسي بكل قواه.

ولم يكتف المعتدون بدفعه، بل راحوا ينعتونه نعوتا عنصرية صريحة، قبل أن يواصلوا طريقهم مترنحين معربدين رافعين أصواتهم بالضحك والغناء.

تسمَّر حفيظ في مكانه أسفل درج المحطة، وأخذ يراقب المعتدين في ذهول واستغراب إلى أن اختفوا، فخرج يسلك طريقه إلى مسكنه مضيوما لا يُصدق ما يحصل له..

لقد جلبت له سحنته ما يكفي من الإهانة والكره والظلم ذلك اليوم، حتى أنه نكس رأسه ليخفي صورته كمبحوث عنه يتفادى عيون الشرطة. حاول الإسراع في خطوه، لكنَّ رجليه لم تطاوعاه حتى أنَّ سيارة كانت ستصدمه وهو يقطع الشارع عبر ممر الراجلين لولا أن قفز متنحيا إلى الرصيف المقابل على غير شعور منه.

وصل حفيظ إلى العمارة حيث يقطن. دخلها من بوابتها الخلفية كالمتسلل، ثم ارتقى درجا حديديا خاليا صُمم كمَخرج طوارئ، اعتاد ارتقاءه تفاديا لكل مضايقات، أو نظرات عنصرية حاقدة. كان يصعد الدرج في حذر كاللص لا يُسمع لقدميه وقع. وصل الطابق الرابع من جهته الخلفية، فإذا به أمام رجلين متشابهين كتوأمين متطابقين يحاولان انتزاع دمية مطاطية من بين فكيِّ كلب يريد تمزيقها بأنيابه الحادة البارزة، فارتعدت فرائصه، وتسارعت دقات قلبه لتواجده وجها لوجه مع كلب شرس قوي من فصيلة "الراعي الألماني". توقف حفيظ خائفا مرتعبا يردد بصره بين الكلب وصاحبيه اللذين بديا غير متفاجئين لرؤيته كأنهما كانا في انتظاره.

ولِدهشته، أسقط الكلب الدمية من فمه ممزقة متناثرة، وتطلع ينظر إليه في بصبصة أثارت غضب الرجلين،

فسارعا يحرضـانه علـى مهاجمـة المهـاجر الغريـب، لكنَّ الكلب أبى الانصياع، ولبث هادئـا فـي مكانـه يُـرقِّص ذيلـه الطويـل، مُخيبـا سـعي صـاحبيه بسـلوكه المفـاجئ.. مـن هدوء، وبصبصة، وترحيب.

توقف حفيظ عند مسكنه بالطابق الخامس والأخير بعد أن اسـتأنف صـعوده الـدرج متظـاهرا بالهـدوء، وسـارع يبحث عن مفتاح البـاب حـذرا مرتبكـا خائفـا غيـر مطمـئِن علـى سـلامته.. فقـد يُغيِّـر الكلـب مـن سـلوكه كاشـفا عـن غريزتــه العدوانيــة، ويلحــق بــه ليهاجمــه مُنفِّــذا أوامــر صاحبيه. ولِشدة تسـرعه وارتباكـه، تعسَّـر عليـه فـتح بـاب مسـكنه بالسـهولة المعتـادة. دار المفتـاح فـي القفـل أخيـرا، فدخل وأقفل الباب خلفه بإحكام ويـداه ترتعـدان، ثـم ارتمـى على فراشه يتنفس الصعداء بعد أن أشعل النور.

كان مسكن حفيظ عبارة عن حجرة ضيقة تابعـة لشـقة محاذية يفصل بينهما ممر به مرحاض؛ حجرة صُممت فـي الأصـل كمخـزن منعـزل، غيـر أن صـاحبها آثـر كراءهـا للعمال المهاجربن.

انقطع صوت الرجلين المتشابهين بعد تأنيبهما لكلبهمـا علـى عصـيانه، فسـاد صـمت رهيـب بتلـك الجهـة الخلفيـة للعمـارة، وبـدت مُوحشـة غارقـة فـي ظلمتهـا. أمَّـا حفيظ، فتجَّمـد فـي فراشـه مُتوجسـا مُحـدقا إلـى السـقف تتنازعـه الوساوس والظنون.. مَن يدري.. فقـد يُقـدم أحـدهم - بـدافع عنصـري - علــى إضـرام النــار فــي حجرتــه مسـتعملا

البنزين، ثم يختفي عبر درج الطوارئ المظلم مجهولا لا أثر له.

جفَّ ريقه من شدِّة الخوف، فحاول حفيظ النهوض من فراشه لأخذ جرعة ماء، لكنه لم يستطع كمن تملَّكه شلل النوم، فعاد إلى توجسه يرهف السمع، فإذا به يسمع وقعَ أقدام تصعد الدرج يصُمُّ صداها الآذان. وكما توجَّس، توقفت الأقدام عند بابه، وسُمِعت طقطقات بنادق يتأهَّب أصحابها للضغط على الزناد، فارتجف المهاجر، وأخذ ينتظر نهايته، سيما وقد شرعت الأقدام بأحذيتها الثقيلة، تضرب الباب بقوة تريد اقتلاعه للوصول إليه، إلاَّ أنَّه، ما إن اقتُلع الباب تتطاير شظاياه في الفضاء، حتى قفز من فراشه ورمى بنفسه خارج حجرته مُخترقا زجاج النافذة المُطلة على فناء العمارة في صرخة مُدويِّة أيقظته من حلمه مذعورا مُرتعبا كما أيقظت جيرانه بجواره.

صدَّق حفيظ ما رآه في منامه كما تُصدَّق الرؤيا. ولأنه لا يرضى لنفسه أن تُحرَّش عليه الكلاب، أو يُطلق عليه الرصاص كالطريدة، قرر العودة من حيث أتى، سيما وقد ساءت صحته، كما ساء وضعه المادي وبات على حافة الجوع والتشرد. وما زاد من عزمه وقوَّاه ـ قوة يقينه بالقضاء ـ تدفق المزيد من شباب إفريقيا جنوب الصحراء، الراغبين في الهجرة السرية إلى أوربا تدفقا مهولا دفع السلطات إلى تشديد الحراسة على طول السواحل الشمالية، حتى بات من الصعب التسلل إلى الضفة المقابلة واستنشاق هوائها.

هكذا، وبعد سنة ونصف من الغياب، عاد حفيظ إلى دوَّار الشوك خائبا محبطا، ليستأنف العيش إلى جانب أسرته عاطلا في كفالة أخيه. تفهَّم أخوه أسباب عودته المفاجئة مُستسلما مُرغما لا خيار له، لكنَّ زوجته لم تتقبل الأمر.. إذ كانت تنتظر منه المزيد من الجرأة والصبر حتى يحقق ما باعت من أجله حِليّها، لكنه خيَّب آمالها وأحلامها، فأخذت تعاتبه، بل وتنعته بالرجل الفاشل، المتخلف الجاهل المؤمن بالخرافات والأحلام، إلى أن صارحته في النهاية بعدم قدرتها على مواصلة العيش مع زوج عاطل لا دخل له، ولجأت إلى طلب الطلاق لعدم الإنفاق، ما سيحتِّم على الزوج العيش وحيدا بعد أن غادرته زوجته مُطلَّقة حاضنة لطفلتها الصغيرة.

كان فراقا صادما لم يستطع حفيظ تحمله، فانطوى على نفسه كئيبا حزينا يندب حظه العاثر في الحياة. أراد أخوه إخراجه من صدمته وكآبته، فراح ينصحه بالصبر مُجددا أمله في خالقه إلى أن استعاد بعضا من حيويته وتفاؤله، وأنشأ يبحث له عن شغل.

لكن، ومرة أخرى، سيطول بحثه قبل أن يشتغل حارسا ليليا للسيارات والدراجات النارية بذلك الشارع الفرعي قانعا راضيا لا يشغله سوى مستقبل طفلته التي - ولِصغر سنها - لم يفكر في مسألة حضانتها بعد زواج أمها. فما رغِب سوى في رؤيتها والاطمئنان عليها، الشيء الذي سيتم الاتفاق عليه وجدَّ الطفلة وديا يوم وعده هذا الأخير قائلا: «لا تقلق يا ولدي.. فالبنت بنتنا جميعا، وما يقلقك بشأنها يقلقنا. أمَّا بخصوص الزيارة، فلن أتوانى

في اصطحاب الطفلة معي كل جمعة، لتحضنها وتطمئِن عليها» .

رحَّب حفيظ بما وعده جدُّ الطفلة، إلاَّ أنه شعر بالخجل عندما استطرد الرجل قائلا: «...أمَّا بخصوص النفقة، فقد أعفيناك منها لظروفك المادية الحالية» .

اطمأن حفيظ بشأن طفلته، وأنشأ يعمل مُستأنسا بعمله الجديد، إلاَّ أنَّ الرجل الذي توسَّط له في حصوله على رخصة الحراسة، ما انفك يمنُّ عليه بوساطته، إذ صرَّح حفيظ لأخيه ذات يوم قائلا:

ـ لقد بدأت أفكر في ترك هذا العمل، والبحث عن عمل آخر بمجهودي الشخصي، دون وساطة مُحرِجة ولا رشوة.

فتساءل أخوه:

ـ ماذا.. أتريد العودة إلى بطالتك من جديد؟! تصبَّر يا أخي.. تصبَّر.. فلا حيلة لك سوى الصبر.

وبينما كان حفيظ يحادِث عمه الصردي (كما تركناه في بداية هذا الفصل) انتبه إلى سيارة فارهة توقَّف بها صاحبها ليركنها بالرصيف المقابل حيث تصطف سيارات الزبائن. ركَن الرجل سيارته بدقة، وترجَّل عنها مُجهدا نفسه لضخامة جسمه المترهِّل، ثم صفق الباب، وتقدم يقطع الشارع مُتبخترا مُدركا أنَّ عيونا خفية وظاهرة، تجول بينه وبين كلبه الصغير الأنيق وسيارته الفارهة

المُبهرة. كان الرجل يمشي مِشية البطريق الإمبراطوري بذراعيه القصيرتين المنجذبتين إلى الوراء يتقدمه بطنه المنفوخ، فالتفت حفيظ إلى عمه وقال له:

ـ أرأيت ذلك الرجل الأصلع البدين الذي يعبر الشارع وكلبه إلى جانبه؟ إنَّه صاحب هذه العمارات السكنية الضخمة التي تحيط بنا، فضلا عن عقارات في أماكن أخرى. إنَّه يتوجَّه الآن إلى مكتبه حيث يطَّلع من حين لآخر على سير عملية البيع لِما تبقَّى من شُقق ومتاجر شاغرة.

فعلق الصردي:

ـ غريب! كان من المفروض أن يصاحبه كلب "بوليسي" يقظ شرس، بدل " كانيش" يتبختر غافلا مُدللا ممشوط الوبر.. فمحفظته المنفوخة البارزة، لا شك تُسيل لعاب لصوص الخطف، وقُطاع الطرق في وضح النهار.

ـ اللصوص لا يجرؤون على سرقة الأغنياء، كأنهم يهابونهم لِما لهم من هيبة المال كهذا المثري البخيل. قال حفيظ.

- بخيل مع كل هذه الممتلكات؟!

ـ في منتهى البخل.. لقد ظل يركن سيارته الضخمة الفارهة بالرصيف المقابل كلما جاء إلى مكتبه، ولا فكَّر مرة، فأعطاني درهما أو درهمين مقابل حراستي لسيارته! بل ولا حتى قال لي كلمة شكر وهو يركبها مغادرا!

ـ يا لَلعجرفة والظلم! علق الصردي، ثم التفت إلى ابن أخيه يحثه قائلا:

ـ قل له.. نبِّهه.. لا تسامح في حقك!

ـ ماذا أقول له.. ألا يراني الحارس الرسمي هنا بسُترتي الصفراء الفاقعة؟

سكت الصردي برهة كالمتفكر، ثم قال:

ـ لعله يتذرع باستغلالك جدار عمارته هذه مجلسا لعملك. لكنَّ هذا لا يعفيه من أداء واجب الحراسة كباقي الزبائن. تصوَّر لو أنَّ سيارته تعرضت للسرقة أو الضرر في غفلة منك، أتظن أنَّه سيعفيك من مسؤوليتك لأنك لا تتقاضى عن حراستها درهما واحدا؟

ـ لن يعفيني طبعا، لكن ما عساني أفعل؟ فالرجل مُتعجرف بخيل شديد البخل لا يتساخى سوى مع زوجاته الأربع كما يقال؛ زوجات مدللات لكل واحدة منهن فيلاًّ باسمها، ناهيك عن الحِليِّ والمجوهرات.

ـ أربع زوجات في زمننا؟! يا لَلعجب! هذا والله استوفى حقَّه في الزواج كاملا!

ـ بفضل ثرائه.

ـ طبعا.. طبعا.. اللهم زِده من فضلك وكرمك يا رب! لكن ما يحز في النفس.. أن نجد شبانا يعنسون بسبب عطالتهم أو فقرهم، فيقطعون الأمل في الزواج!

فاستطرد حفيظ:

ـ ويُقال أنَّ زوجته الرابعة في سن صُغرى بناته! أتساءل كيف قبِلت الزواج برجل في سن أبيها مع ضرائر ثلاث؟!

ـ إنَّه الطمع يا ولدي.. والمال سِتار يحجب عيوب صاحبه، ويؤهل فاقد الأهلية!

كان حفيظ يتحدث إلى عمه وعينه على السيارات والدراجات المركونة بالرصيف المقابل، فإذا به يلمح شخصا قد اتكأ على سيارة الرجل الثري صاحب الكانيش يريد فتح بابها الأمامي، وسرقة ما بداخلها من أشياء. لكنَّه ما إن رأى الحارس قادما نحوه حاملا هراوته يصرخ به أن يبتعد عن السيارة، حتى توقف عن محاولته المكشوفة، وحنى رأسه ينظر في مرآة الرؤية الخلفية للسيارة متجاهلا صراخ الحارس. كان اللص شابا نحيفا، طويل القامة، يضع على رأسه قبعة دكناء منحرفة إلى الوراء. بدا في حالة غير طبيعية كما سيتَّضح للحارس عندما اقترب منه محاولا إبعاده عن السيارة، إذ سطعت منه رائحة الكحول كريهة مُنفرة. كرر الحارس صياحه الزاجر، لكنَّ اللص المخمور لبث مُسنِدا ظهره إلى السيارة في تحدٍّ وعناد، بل وتطلع إلى الحارس في ازدراء واستخفاف، وسأله بلسانه الثقيل يهزأ به:

ـ أهي سيارتك؟ مُحال! فهيأتك البائسة، لا تتماشى وهذه السيارة الفاخرة!

ثـم أطلـق ضـحكة مصـطنَعة مسـتفزة، لكـنَّ الحـارس تمالك أعصابه محذرا إيَّاه:

ـ أقفل فاك النتن أيها السافل القذر وانسـحب مـن هنـا، وإلاَّ هشَّمت رأسك بهذه الهراوة!

عندها، تزحزح اللص عن السيارة يتـرنَّح مُحـدقا إلـى الهراوة، وكفَّ عن سخريته واستفزازه مُغيِّـرا مـن لهجتـه يطلب سيجارة مقابل انسحابه، فقال له الحارس:

ـ آسف.. لا أدخن!

قطَّب اللص خائبا، وعاد يطلب سيجارة أو ثمنها، وإلاَّ لن يغادر المكان. كان بالإمكان تلبيـة طلبـه البسيط بمنحـه ثمن سيجارة تفاديا لشره وإزعاجـه، لكـنَّ تعنتـه وابتـزازه، أفقدا الحارس أعصابه، فارتمى عليـه ثـائرا هائجـا يحـاول خنقه بكل قواه، ليسقط اللص على ظهـره حتـى كـاد رأسـه يرتطم بحافة الرصيف.

رفع الحارس هراوتـه لينهـال عليـه خبطـا، لكـنَّ عمـه منعـه محـاولا تهدئتـه. نهـض اللـص يتحامـل علـى نفسـه، ومشى مترنحا شاهرا سكينا لمَّاعا يريد طعن خصمه الـذي ولاَّه ظهـره مبتعـدا، إلاَّ أنَّ الصـردي تصـدى لـه مسـتعينا بعكـازه، فأصـابه اللـص بسكينه إصـابة بليغـة فـي ذراعـه سارع حينها شبان توقفوا لتوِّهم، فارتموا على الجـاني مـن الخلف وجـردوه مـن سـلاحه، ثـم أشـبعوه ضـربا، قبـل أن يقتادوه إلى مخفر الشرطة والحارس إلى جـانبهم لا تفارقـه

هراوته. أمَّا الصردي، فأردفه أحد المحتشدين على دراجته النارية، وأسرع به إلى المستعجلات لتلقي العلاج.

كان الشبان قد شارفوا على مخفر الشرطة بالشارع الموالي عندما أحاط بهم بعض المارة يرجونهم إخلاء سبيل الجاني كبئيس سِكِّير تلقلى ما يكفي من الإهانة والضرب، فأومأ الحارس إلى الشبان أن يتركوه شاكرا لهم تدخلهم الرجولي النبيل، ليعود الجميع أدراجهم تاركين الجاني يئِن مُغمغِما متوعدا بالانتقام.

عاد الصردي شاحب الوجه مُضمَّد الذراع، فسارع حفيظ يسأله في قلق:

ـ كيف جرت الأمور يا عم؟

ـ بخير.. بخير..

ـ وذراعك؟

ـ كفَّ نزيفها والحمد لله!

ثم تساءل عمَّا حدث مع اللص المعتدي، فأجابه حفيظ قائلا:

ـ لقد صفحت عنه يا عم، وتركناه يذهب بعد أن أشبعناه ضربا.

فاستشاط الصردي غضبا، وتساءل يقول:

ـ كيـف تصـفح عمَّـن أراد طعنـك مـن الخلـف ظلمـا؟! فهؤلاء اللصوص مجرمون قتلة، لا يسـتحقون الصَّـفح ولا الرحمة!

الفصل السادس: المرأة العجوز والرضيع

كان العقيد جالسا إلى طاولته داخل المقهى يرتشف قهوته الصباحية بعد أن أنهى عمله الروتيني من كنس وتنظيف ... كان رصيف المقهى قد بدأ يعرف إقبال الزبائن. بركنه الأيمن، انزوى حسن بمقعده المتحرك وصندوق سجائره الخشبي شارد النظرات. كانت النادلة قد ملأت صينيتها بمشروبات ساخنة من شاي وقهوة، وخرجت تخدم الزبائن نشيطة مبتسمة كعادتها. في هذه الأثناء، أقبل زبون معروف لدى الجميع يرتدي معطفا أسود فاحما، ويحمل محفظة في يده.

ألقى التحية رافعا صوته، ثم جلس إلى طاولة قرب حسن يسأله عن حاله وحال أبيه الصردي. لقد اعتاد التردد إلى المقهى كل صباح ليرتشف قهوته قبل أن يباشر عمله كعون سلطة من أعوان المنطقة.

أحضرت النادلة قهوة العون بعد أن أفرغت صينيتها، وتسمَّرت في مكانها تُحدق في انزعاج إلى بائع سمك متجوِّل توقف لتوِّه يركن عربته اليدوية الملأى بالسردين محاذية لرصيف المقهى لا يفتأ يردِّد صائحا:

- سردين.. سردين.. لا غلاء على مسكين..

ترويج مُختَصَر فعَّال سرعان ما جذب الزبائن، فشرع السمَّاك يبيع سردينه نشيطا مرحا غير مُكترث لِما بدا على زبائن المقهى من انزعاج واشمئزاز.

لم تتمالك النادلة أعصابها، وصاحت به أن يتحرك بعربته بعيدا عن المقهى في لهجة أثارت غضبه، فدخل

معها في شجار قام العون لفضِّه على طريقته مُعاتبا مُهددا السمَّاك بإبلاغ مَن سيصدرون بضاعته إن هو تمادى في تعنته وعناده ولم ينسحب. ثم أضاف:

ـ هيَّا تحرك! جُر عربتك وابتعد من هنا!

فاستدار السمَّاك، وأنشأ يدفع عربته الثقيلة مبتعدا بعد أن غمز له العون غمزا لم يلبث أن أدرك معناه.. فهو يعرف العون كزبون من نوع خاص ماهر في التمثيل. لقد ظل يزن له السردين بالمجان ويوفِّي له الميزان كلما صادفه في طريقه كعون على حيِّهم قد يحتاجه في خِدمة، أو وساطة تجنبه مُصادرة عربته بسمكها وميزانها.

في هذه الأثناء، أقبل توفيق صاحب المقهى خارجا من منزله، وجلس إلى جانب العون بعد أن حيَّا الجميع بإشارة من يده. كان العون قد عاد إلى مقعده بعد زجره للسمَّاك، وأخذ يُمَسِّد شاربيه في شيء من الزهو.

خرج العقيد يحمل مكنسة وسطل ماء متدفق، وطفِق ينظف ما خلَّفه بائع السمك من قذارة نتنة داكنة كعصارة القمامة، فعلق صاحب المقهى:

ـ هذا أسوأ ما في هذه الظاهرة التي ما فتئت تستفحل في غياب البديل!

ثم أشعل سيجارة، وأنشأ يحادث العون كعادته. ومن حين لآخر، يتوقف عن الكلام شاردا مبتسما كأنه يعيش حلما ورديا في يقظته. حالة غير طبيعية بدت للعون، فقال

يُحدث نفسه: «هذا لا شك من فعل مخدر قوي غير الحشيش» . وكان صائبا.. فبعد تفكُّره في نصيحة صديقه جعفر السمسار بالتخلي عن إدمان الحشيش واستبداله بالكوكايين كمخدر نقي راق يُثير النشوة ويطرد الكآبة والضجر، عَمِل توفيق بالنصيحة، وأنشأ يدخن المسحوق الأبيض الثمين بعد خلطِه بالتبغ داخل لفيفة كالسيجارة سعيدا منساقا وراء نشوة وهمية خادعة. وكلما احتاج المزيد، لجأ إلى صديقه ليرافقه إلى مسكن تاجر المخدرات.. صاحب ملهى "لابلنسوار" حيث يتأرجح الرجال، ليزوِّده بالمخدر.

وبينما كان توفيق يحادث العون مرحا منتشيا، أقبل رجل قوي البنية في هيئة بنَّاء عابسا مُكفهرا يلوح الغضب في عينيه الجاحظتين، وتوقَّف أمام العون الذي ما إن رآه على تلك الحال، حتى سارع يُسلِّمه وثيقة أخرجها من محفظته. وبنظراته المتشككة، تسلَّم الرجل الوثيقة وأخذ يتحقَّق من صلاحيتها، ثم زفر نافخا حنكيه كمن يتنفس الصعداء. ولكي يُبدي تشكره، شدَّ على يد العون شدًّا قويا بيد كالمِلزمة، ثم انصرف يهرول عائدا أدراجه.

كانت قبضة عنيفة قاسية عصرت الدمع في عيني العون، وتركته يتألم مُغمغما داعيا على صاحبها بأشد الأوجاع والمصائب. انتبه توفيق إلى ما يعانيه جليسه من ألم، فسأله مُستغربا كابحا ضحكه:

ـ أشكر هذا أم عِقاب؟ أرى أنَّ الرجل قد شلَّ أصابع يدك بقبضته دون رحمة!

فـردَّ عليـه العـون وهـو يُمَسِّـد أصــابع يـده الرقيقـة المتضررة كأنه يعيد لها الحياة:

ـ بل كاد يسحقها سحقا!

فأطلق توفيق العِنان لضحكه مُقهقها يرمي برأسـه إلـى الوراء، وعاد يتساءل:

ـ ولِمَ هذا الشكر الغريب.. أهو مجنون؟

ـ لأني تماطلت طويلا في إعطائه وثيقته..

ـ فهمت.. فهمت.. قاطعه توفيق.

فـي هـذه الأثنـاء، تقـدمت امـرأة عجـوز نحيفـة فانيـة تبدوفي هيئتها كالمتسولة. كانت تحمـل بـين ذراعيهـا طفـلا رضيعا ملفوفا في خِرقة بيضاء ناصـعة كـالكفن، لا يظهـر منـه سـوى وجـه شـاحب مسـتدير بفـم مُنفـرج تـدلَّت منـه مصَّاصة كأنه فـي طـور الفطـام. توقَّفـت المـرأة عنـد بـاب المقهى، وأطلَّت برأسها تنظر إلى الداخل كأنها تبحـث عـن شخص ما خجولة مترددة، فاقتربت منها النادلة تسألها فـي لطف:

ـ عمَّن تبحثين أيتها السيدة؟

ـ عن شابة تُدعى سُعاد الشَّهبة.. قِيل لي أنها تعمل هنـا في هذا المقهى.

سمِعها توفيق، فأخبرها قائلا:

ـ سُعاد الشَّهبة لم تعد تعمل هنا منذ مدَّة أيتها السيدة.

فأضافت النادلة:

ـ يُقال أنَّها هاجرت إلى أوربا في هجرة سرية رفقة شخص ينادونه " بالعسكري".

فتساءلت المرأة وقد لاحت الخيبة في وجهها:

ـ هاجرت؟! وهذا الرضيع.. ما ذنبه حتى تتخلى عنه؟

ـ وما علاقة سعاد الشهبة بهذا الرضيع أيتها السيدة؟ تساءل توفيق.

ـ إنها أمه.

ـ أمه؟!

ـ نعم أمه.. والدته.

بدا صاحب المقهى مُستغربا الأمر. ولمعرفة المزيد، دعا المرأة إلى الجلوس، وطلب منها أن تقص عليه حكاية الطفل الرضيع والأم المختفية، فأنشأت تحكي بصوتها المسموع كشاهد عيان يقف أمام هيئة القضاء تقول:

ـ إنَّ سعاد الشهبة يا سيدي، كانت جارتي تقاسمني السكن بحي الكرمة. وبحكم عملها كنادلة، كانت لا تعود من عملها إلاَّ عند منتصف الليل. وظلت الفتاة على هذه الحال إلى أن فاجأتني ذات يوم بحمل لم يكن لها في الحسبان. لم تجرؤ على إجهاضه خوفا على حياتها،

فعمدت إلى إخفائه ما استطاعت. وبعد أن وضعت، حرِصت على رعايتها رعاية الأم لابنتها إلى أن استعادت قوَّتها. خافت من كلام الجيران، فطلبت مني أن أعتني بوليدها مانحة إياي بعض النقود ريثما تكتري مسكنا بحي بعيد حيث لا أحد يعرفها. تفهَّمت وضعها ووافقت بسذاجة. لكن مع توالي الأيام والشهور، أدركت أنها سوف لن تعود، لأجد نفسي، أنا المرأة الفقيرة العجوز، أستعطف المحسنين لأقتني ما يحتاجه الصبي من حِفاظات وحليب الصيدليات.

ثم تنهدت كالمغبونة، ونظرت إلى توفيق تُضيف قائلة:

ـ أنا أرملة فقيرة عجوز كما ترى يا سيدي، لا قدرة لي على رعاية الصبي.. إذ لولا كرم الكرماء، لما استطعت العيش، ولا أداء واجب الكراء!

حوقل السَّامعون في أسف، وقال أحدهم ينصح المرأة:

ـ ابحثي للطفل عن ملجإ يأوي الأطفال المتخلَّى عنهم، وأريحي نفسك أيتها السيدة.

فتدخل العون يختصر القول في لهجة العارف الخبير:

ـ عليها أولا.. أن تُخبر السلطات المحلية بالأمر، كي يتم التصريح بولادة الصبي وِفق قانون الحالة المدنية.

التفت توفيق يرنو إلى الصبي النائم في أسف، فأحسَّ أنَّ عيونا تتغامز عليه، لكون سعاد الشهبة سبق لها أن اشتغلت بمقهى شباب الحي، وأنَّه كان يوصلها بسيارته

إلى مسكنها وقد أنهت عملها قُبيل منتصف الليل. مبادرة نبيلة بريئة، لكنها تدخله الآن قفص الاتهام كوالد للصبي. حاول تجاهل الأمر، لكنه لم يستطع، فانتابه الحرج والتوتر، سيما وقد بدأ مفعول ما دخَّنه من كوكايين قبل خروجه من منزله يتلاشى، وصار في حاجة إلى لفيفة ثانية قد تعيد له هدوءه، وثقته بنفسه.

سمِعت المرأة ما يكفي من نصائح وتوجيهات، فنهضت مُحبطة حائرة لا تدري أي طريق تتَّبع، وانصرفت تردِّد: حسبي الله ونعم الوكيل!

ابتعدت المرأة توشك أن تقطع الشارع في تثاقل، فلحِق بها صاحب المقهى ليجود عليها بما في جيبه من نقود، في مبادرة استحسنها الجميع عدا ذوي النظرات الماكِرة المُتَّهِمة.

ساد صمت أسف وسخط، فعلق العون قائلا:

- لم يُحرِّم الله الفواحش عبثا!

- لا شك أنَّ العسكري هو صاحب الفِعلة. قالت النادلة.

- إنَّ بعض الظن إثم. ويبقى الحِمض النووي، الكاشف الحقيقي للأب الشرعي. ردَّ العون.

- أكيد.. لكن ما ذنب هذا الصبي، حتى يؤدي ثمن خطيئة أم تنعدم لديها غريزة الأمومة؟ تساءل زبون.

فردَّ عليه آخر:

ـ الخطيئة هنا مشتركة بين الوالدين المذنبين. وهذه الأم ـ على الأقل ـ رمت بمولودها في أحضان جارتها الفاضلة سالكة ما يُشبه طائر الوقوق في حضانته لبيضه، عكس ما يقدِمن عليه بعضهن من جرائم نكراء في حق مواليدهن!

ـ صحيح.. لقد عُثر الجمعة الماضية على مولودة قُطِّعت أوصالها كما تُقطَّع أوصال الذبيحة، ورُمي بها داخل كيس قمامة بحي الهُدى! قال العون.

فاقشعرت الأبدان، وسرت همهمة سخط واستنكار، فقال أحد الزبائن:

ـ لطفا يا رب! فهذه المولودة لم يُكتب لها أن تعيش، فقُطِّعت أوصالها! أمَّا هذا الصبي.. فحتى وإن عاش بأوصاله، فكيف سيكون مستقبله؟

ـ قد لا يكون مُشرقا، إن لم تجد المرأة مَن يكفُله ويرعاه! أجاب آخر.

جرع العون ما تبقَّى من قهوته المجانية المعتادة، ونهض يغادر المقهى ليباشر عمله. وبدوره، نهض توفيق يردُّ التحية على الشباب وهم يلجون المقهى يسبقهم النعَّاس، ودخل منزله كالمتسلل، ثم صعد إلى السطح ليدخن لفيفة كوكايين تعيد له نشوته ونشاطه، وقد تُنسيه حكاية المرأة العجوز والرضيع، وما صاحبها من همسات ونظرات مُتشككة ماكرة ...

الفصل السابع: وردِيَّة

كعادتـه كـل صـباح، جلـس عيَّـاد بعتبـة كوخـه يـدخن كالشــارد المتأمــل. داخــل الكــوخ، لا زال الجميــع نائمــا باستثناء الزوجة المنهمكة في غسل الملابس في هدوء كيلا توقظ الأولاد، سيما المهدي الناشـر رجليـه خـارج فراشـه بالصحن قرب المرحاض يتصاعد شخيره وينخفض.

وفي مشهد قروي، ظهر قطيع أبقـار قادمـا مـن الجهـة الخلفية للدوَّار تثير حوافره الغبار أيقظ عيَّـاد مـن شـروده، فالتفت يرنو إليه في إعجاب وهو يمر أمامه قاطعا السـاحة صوب أرض معشوشبة بعيدا غرب الشـارع العـام ليرعـى الكلأ، ويلتهم ما يُطرح من نفايات سـوق عشـوائية منعزلـة للفواكـه والخضـر. وقـد يتسـاءل المـرء وهـو يُشـاهد هـذه الأبقار وعجولها عـن كيـف تسـرح لوحـدها طـوال النهـار دون سارح ولا رقيب، وتُقاد إلى حظائرهـا سـالمة مُكتملـة العدد عند المغيب؟ كما قد يتساءل عن ضروعها المنفوخـة المتدلية تكاد تلامس الأرض.. أهي شكرى تفيض لبنـا، أم بها عِلة من العِلل؟

ابتعـدت الأبقـار المغتربـة عـن بيئتهـا، فتنهـد عيَّـاد كالمتحسر، ثـم انحنـى يلـتقط عـودا مرميـا بجانبـه، وطفِق يرسم خطوطـا متقاطعـة متشـابكة فـي التـراب وقد ذكَّرتـه الأبقار بقريته الصغيرة الهادئـة مسقط رأسـه حيث عـاش طفولتـه وشـبابه حـرا طليقـا لا يحمـل همَّـا ولا نكـدا ... ذكَّرته، فعادت به ذاكرته إلـى تلـك الأيـام الدافئـة المشـرقة الزاهية، حيث يجتمع رجال القرية في العراء عند الأصيل لاحتساء الشاي، ومناقشة ما يشغلهم من أمور قريتهم ...

وهـو يستحضـر تلـك الأيـام تعلـو الابتسـامة شـفتيه الداكنتين، كان لا بـدَّ أن تحـطَّ بـه ذاكرتـه علـى بسـاط مـن التبن قُرب بيدر مُنعزل حيث ينبطح منفـردا، ليعـيش أحلـى لحظات حياته متتبعا تحركات وردِيَّة مـن بعيـد وهـي تقـوم بـبعض الأشـغال بفنـاء منـزل أبيهـا الفسـيح، أو تقـف عنـد مدخله المفتوح متحدثة إلى صديقاتها القرويات.

تنهَّد عيَّاد عميقا هذه المرة تاركا العود يسقط مـن يـده، وراح يتخيَّل وردِيَّة بقدِّها القصير وجسمها المكتنز، مُركزا على وجهها الممتلئ المستدير ذي العينين النجلاوتين؛ وجه ناضر مشرق وضـيء ينمُّ عـن غضـارة موروثـة.. إذ كـان أبوها الحاج رحَّال فلاحا من كبار الفلاحين الأغنياء ورِثت عنـه بنتـه الوحيـدة بعـد وفاتـه، مـا يُعيِّشـها ويُعـيِّش أحفـاد أحفادها...

كان عيَّاد وقتها، مُجرد عامل يعمل فـي حـرث أرض الحـاج رحَّـال الفلاحيـة الشاسـعة وزرعهـا وحصـدها إلـى جانب عمَّال آخرين، لذا لم يجرؤ على خِطبـة وردِيَّـة رغـم إعجابه بها، فكانت الفتـاة المهذبـة المتواضـعة مـن نصـيب مَن هو أهل لها نسبا وثراء، إلاَّ أن زواجها لم يَـدم طـويلا، فعادت مطلقة لتستأنف العيش إلى جوار أمها.

غابت الابتسامة بين طيَّات تجاعيد وجهه، فأشعل عيَّاد سيجارة ثانية، وراح يُلقـي بـاللوم علـى نفسـه، لتـردُّده فـي خِطبة وردية بعد طلاقها، سيما وقد كانت والدتها تُشـيد بـه وتُعِزه لتفانيه وإخلاصه في العمـل، بـل وتعتبـره فـردا مـن أفراد العائلة لن تردَّه خائبا.

لقد أدرك الرجل بعد مرور الأعوام حجم غلطته.. ضياعه فرصة كانت ستُخرجه من بؤسه وكدحه.. إذ لو اغتنمها جريئا واثقا من نفسه، لكان اليوم من أسعد الناس يُسرا وهناء، ولَما نزح عن قريته، بل ولَما عرف أبناءه المجرمين العققة.. وُجوه الشر والنحس كما ظل ينعتهم. فلو لا تردُّده وخجله، لظفر مُنعَّما يجني ثمار وردية وغلاَّتها بلا كدح ولا عناء، ولَسكن منزلا فسيحا تحُفُّه الأشجار، بدل انحباسه داخل صندوق صفيحي، لا يجني سوى البؤس، والسقم، والشقاء.

أخذ نفسا عميقا من سيجارته الرخيصة الذابلة، وعاد يُعاتب نفسه من جديد: «كان عليَّ أن أسارع لخِطبة ورديَّة قبل أن ينقضَّ عليها حمَّادي.. ذلك الصقر المخادع الجائع بممتلكاتها وخيراتها!». إنه العتاب الذي ظل يُرهِق به نفسَه المُرهَقة في ندم ومرارة.. فعندما طُلِّقت وردية، لم يجرؤ أحد من شبان القرية على خطبتها بسبب فقرهم إلاَّ حمَّادي الذي سارع يطلب يدها حالما واتته الفرصة، وتزوجها مُحكِّما منطق المنفعة، فكان له ما أراد، حتى أنَّ بعضهم صاروا يُضمرون له الغيرة والحسد، لِما أصبح عليه من طيب العيش ورغده.

ولأنَّ المقسوم لا مفرَّ منه، تزوَّج عيَّاد ونزح عن قريته إلى الحاضرة بسبب الجفاف والعطالة. إلاَّ أنَّه، ومع مرور الأعوام بقساوة عيشها وشقائها، بدأ الرجل العائل يشعر وكأنَّه ندِم على اقترانه بامرأة فقيرة ليس لديها ما تُعطيه سوى الأولاد؛ أولاد تسعة انحرف منهم أبناء عققة

نكَّدوا عيشه بانحرافهم وعقوقهم، حتى كرَّهوه الزواج وما ينتج عنه.

لبث عيَّاد شاردا سارحا مع ذكرياته بحُلوِّها ومُرِّها، إلى أن أفاقه حمزة صديق ابنه الأصغر من شروده عندما انحنى عليه يقبِّل يده في تحية واحترام، قبل أن يرفع صوته مُناديا: - زهير.. زهير ..

خرج زهير، وانحنى بدوره يقَبِّل يد أبيه يُراضيه، ثم انطلق الصديقان صوب الخيمة شمال الساحة ليتناولا فطورهما كالمعتاد، قبل أن يتوجها إلى المدار حيث يزاولان عملهما الهامشي.

ابتعد الطفلان اليافعان، فحنى عيَّاد رأسه يُعيد النظر في ما خطَّت يده في التراب من خطوط مبهمة متقاطعة، ثم التقط العود من جديد، وأنشأ يُصحِّح مسار بعضها ويحذف أخرى. في هذه الأثناء، خرج ابنه المهدي وصفق الباب خلفه بشدَّة كعادته، فالتفت إليه أبوه يصرخ في وجهه:

- بهدوء يا حيوان.. بهدوء.. أقفل الباب بهدوء!

فنظر إليه ابنه نظرة عداء وازدراء، وتسمَّر في مكانه صامتا ينتظر مصروف جيبه. أخرج عيَّاد بضعة دراهم من جيبه كالعادة، ورمى بها في الأرض متناثرة في غضب، فانحنى عليها الابن يلتقطها، ثم انصرف يجر قدميه غير مُكترث لغضب أبيه ولا لسخطه، فتساءل هذا

الأخير مُتمتما رافعا رأسه إلى السماء: «أيَّ ذنب ارتكبت يا رب، حتى أُرزق هذا الصنف من الأبناء؟!

ثم انحنى ليعود إلى خطوطه من جديد، إلاَّ أنَّ شجارا نشب بالعين أثار انتباهه لشدَّة صخبه سرعان ما تحوَّل إلى عراك بين نسوة تشابكن بالخمش والعض، والتراشق بالسطول والحجارة.

احتدمت المعركة حامية دامية، فإذا بحجر صلب يرتطم بكوخ عيَّاد كالقذيفة كاد يُصيب الرجل في رأسه لولا حسن حظه. كان الارتطام بالصفيح قويًّا مُدويًّا أفزع مَن بداخل الكوخ، فخرجت الزوجة وبناتها قلقات مذعورات لمعرفة ما يحدث، قبل أن تنصح الزوجة زوجها بدخول البيت، خوفا من أن يُصيبه حجر من الحجارة المتقاذفة الطائشة ...

الفصل الثامن: دخول الصيف

أقبل الصيف قبل أوانه، فانقلب الجوُّ حارا خانقا يلُف الدوَّار، والشمس ساطعة حارقة تكشف عن واقع متجهم سيما عند الهاجرة، حيث تُحمى الأكواخ الصفيحية فيعُم الصمت وتُشل الحركة، إلاَّ من طنين الذباب الطنَّان القارص اللجوج. فمِن شدَّة الحر، تستحيل الأكواخ إلى ما يُشبه الطناجر المضغوطة. وإن هبت ريح، تهب ساخنة تكاد تلفح الوجوه.

اقترب العصر، فبدأت ساحة الدوَّار تعرف بعضا من رواجها بعد أن ظلت خالية إلاَّ من المتزاحمين حول العين بسطولهم وبراميلهم تحت وهج الشمس اللاَّهبة، كما بدأ الشارع العام يستعيد حركيته الدائبة لتبلغ ذروتها عند المساء. برصيف مقهى شباب الحي، جلس حسن قابعا في ركنه المعتاد بمقعده المتحرك شاردا سارحا مع خواطره إلى أن لفت انتباهه مشهد احتفالي مُتنقل قاطعا الشارع يظهر فيه صبي مؤهل للختان بلباسه التقليدي، أركبه فارس على فرسه المُسرج الأبيض ذي العُرف الممشوط المُنسدل. كان الفارس يتقدم الموكب المُصاحب في هيبة وشموخ، يرتدي جلبابا أبيض ناصعا، ويحمل في يده اليمنى بندقية بارود فرسان "التبوريدا".

خلفه، يسير طبَّال وزمَّار يعزفان على آلتيهما بكل ما أوتيا من قوَّة الضرب والنفخ، تتبعهما جماعة نسوة أنيقات بفساتينهن التقليدية وأطفال من مُختلف الأعمار. كانت النسوة يصفقن على إيقاع ضربات الطبل ونغمات المزمار، ويزغردن فرحات مُبتهجات...

كان الموكب يتقدم ببطء وسط الشارع معرقلا حركة المرور، فارتفعت أبواق السيارات والحافلات العابرة تدعو إلى إخلاء الطريق، إلاَّ أنَّها، لم تلق آذانا صاغية رغم صخبها. لكن، ما إن دوى نفير قوي لشاحنة عملاقة، حتى جفل الفرس راكضا صوب ساحة الدوَّار، والنسوة من خلفه يهرولن مُولولات خائفات على الصبي من السقوط في مشهد يثير القلق والضحك معا.

ولو لا مهارة الفارس وبرودة أعصابه، لحدث ما لا تحمد عقباه. توقف الفرس، فتنفس الناس الصعداء، لكنَّ الصبي ما انفك يصرخ مُرتاعا يريد النزول، عن الفرس الجفول.

تفرق الموكب بحشده، فاستعاد الشارع حركيته العادية. لكن، وكما لاحظ حسن، توقفت امرأة من ساكنة الدوَّار تدعى " فاطمة الزهراء" عند الجانب الأيسر لرصيف المقهى وأخذت تتفرج على الفارس وهو يعود أدراجه وحيدا كالمخذول، تتدلى بندقيته المزخرفة من يده.

توارى الفارس بعيدا، فاستأنفت المرأة سيرها ببطء تنظر في الفراغ نظرات عميقة مبهمة تشي بخلل عقلي أفقدها صوابها غير واعية ولا مُدركة لِما صارت عليه من تسكع وتصرف غريب تُجاه الأطفال الذين تصادفهم في طريقها، حيث تمسك بمن لا يستطيعون الهرب منها، وتأخذ في النظر إليهم مُحدِّقة مُتفرسة في وجوههم تزرع الرعب في نفوسهم البريئة، قبل أن تتركهم يذهبون لحال سبيلهم، فتستأنف تسكعها..

إذ تمضي الساعات الطوال تجوب الشارع جيئة وذهابا، إلى أن تلحق بها والدتها لتعود بها إلى البيت قبل حلول الظلام، خوفا من أن يُصيبها مكروه.

كانت فاطمة الزهراء امرأة معروفة حتى خارج الدوَّار.. إذ اعتاد الناس رؤيتها تتمشى عارية الرأس شعثاء في هيئة مُزرية، حتى أنَّ بعضهم يعرفون قصتها.. فقد فقدت المرأة زوجها وطفلها "الزوهري" في عام واحد، فأصيبت بصدمة نفسية أفضت بها إلى خلل عقلي.. فالزوج المعيل، مات في حادثة سير. أمَّا الطفل الزوهري، فتمَّ اختطافه من قِبل أشخاص أدخلوه سيارتهم وانطلقوا به هاربين وِفق شهادة الأطفال الذين كان يشاركهم اللعب بساحة الدوَّار، على مَقربة من رصيف الشارع.

شاع الخبر، فعرف الناس أنَّ الاختطاف ليس له من دافع سوى زوهرية الطفل، وأنَّ المختطفين مجرمون قتلة، يعملون لِحساب دجَّالين نصَّابين يزعمون القُدرة على تحديد أماكن كنوز مدفونة بأسماء ضحاياهم المغفلين، لا سبيل لاستخراجها إلاَّ بتقديم أطفال زوهريين قرابينَ للجن.. حُراس تلك الكنوز الوهمية المزعومة، المتعطشين لدماء هؤلاء الأطفال دون غيرهم.

غابت فاطمة الزهراء لتظهر من جديد كمن يدور في مدار مُغلق. في هذه الأثناء، أقبل زبون غريب عن المقهى وجلس إلى جوار حسن بعد أن طلب قهوة بالحليب إلى النادلة التي لم تتأخر في إحضارها. أشعل سيجارة، وطفِق يُحَلِّي قهوته قبل أن يتركها تبرد لبعض الوقت، إلاَّ أنَّ شابا

منحرفا مِمَّن يشتمُّون مادة "السيلسيون" المخدِّرة، لم يترك لِقهوة الزبون وقتا لتبرد، فأفرغها في جوفه حامية يتصاعد بخارها، ثم أعاد الكوب إلى مكانه بهدوء، كما أعاد خِرقته المخدِّرة المتسخة إلى أنفه، وانصرف يترنَّح كالسكران الثمل أمام انذهال الزبون الذي بقي متسمرا في مقعده يردد بصره بين الكوب الفارغ، والمنحرف المبتعد بلا ردَّة فعل.

ابتعد المنحرف، فجاء بعده شاب حسن المظهر يعرض سلعة أنيقة مُستورَدة من قوارير عِطر، وساعات يدوية.. نموذج مِثالي لبطالة مُقنَّعة في انتظار الأفضل. أثار الشاب إعجاب حسن بحيويته وأناقته، فتمنى لو كان لديه ما يكفي من النقود، لاشترى منه قارورة عطر يهديها لأبيه تشجيعا منه. أمَّا الساعة، فلا حاجة له بها.. إذ الوقت بدقائقه وثوانيه، لا قيمة له عنده.

أنهى البائع المتجوِّل جولته بالمقهى، فأعقبته امرأة تشدُّ إلى ظهرها رضيعا لا يظهر منه سوى رأسه الحليق؛ أقبلت تجر قدميها وجبينها يرشح عرقا من شدَّة الحر. كانت تمدُّ يدها اليمنى متسوِّلة تتباءس رغم بؤسها الظاهر، وتمسك باليسرى رضَّاعة فارغة جافَّة لا تفتأُ تحركها في إشارة واضحة المعنى.

تواصل اختبار القلوب الرحيمة مع تقدم عجوز ضرير، يقوده طفل نحيل يمسك كناشا متقادما متآكلا مفتوحا لحالة مدنية تؤكد لِمن يشكك في ما يردِّده الضرير بصوته المتهدِّج:

ـ ستة أولاد يـا إخـوان.. سـتة أولاد والزوجـة حامـل.. ستة أولاد..

كانت وُجوه أولئك الشحاذة مألوفـة لـدى حسـن، إذ اعتاد رؤية أصحابها وهم يجوبـون الشـارع طـوال النهـار بلا كلل. لكنَّه سيرى وجها جديدا هذه المرة؛ وجهـا ضـئيلا بارز الوجنتين، تعلوه صُفرة الموت لطفلة مُعاقة قسا عليها الشلل، فطال يديها الرقيقتين ليتركهما معقوفتين جامدتين لا تقوى على تحريكهما.

كانت الطفلة نائمة عرقانة يتهادى رأسها مُلامسا ظهر مقعدها المتحرك؛ مقعد متهالـك تدفعـه امـرأة شـابة ترتـدي أسمالا لا تليق بشبابها وعافيتها الظاهرة. كانـت تعمَـد إلـى كشف الغِطاء عـن أطـراف الطفلـة المشـلولة فـي تسوُّلـها، فرقَّ حسن لحال المِسكينة شاعرا بما تعانيـه مـن ألـم تحـت رحمة امرأة تدوس على كرامتها وكبريائها سيما إذا كانـت ـ فعلا ـ والدتها كمـا ظلـت تـردِّد. ولاستغرابه، لـم تتوقَّـف المرأة بالطفلة عند مقعده كما توقَّفت عند طـاولات الزبـائن مُلحَّة في السؤال. بل تجاهلته تجاهلا صـريحا، وهـو الـذي نوى التصدُّق عليها كباقي المتصدِّقين.

أدخلت المرأة ما جمعته من دراهم التسوُّل فـي جيبهـا، وانتقلـت بالطفلـة إلـى المقهـى المـوالي تـدفع بهـا مقعـدها المتهالك وهو يرقص على إيقـاع دولابـين أعـوجين، فتمـتم حسـن يشـكر ربَّـه حامـدا راضـيا بوضـعه كمعـاق يَحظـى برعايـة واحتـرام أبويـه الفقيـرين. فحتـى بيعـه السـجائر " بالديطاي" كان بموافقتة ورضاه.

كان رصيف المقهى قد امتلأ بالزبائن وارتفع هرج الحديث والنقاش، عندما دنت الشمس للمغيب تعقبها حُمرة الشفق. بالداخل، كان الفيلم التلفزيوني الأمريكي قد بلغ ذروته في العنف والقتل، عبر طلقات نارية صاخبة مُخيفة كأنها تخرج من التلفاز؛ تلفاز مُتقادم مُتهالك لا يفتأ العقيد يقوم بإصلاحه مُحركا خيوطه المتدلية المتشابكة كلما تعطَّل عن البث مُثيرا توتر الشباب وهم يتفرجون على الفيلم باهتمام وتفاعل، باستثناء النعَّاس الذي ظل نائما غارقا في نومه لا توقظه طلقات الرصاص...

وبينما العيون شاخصة مشدودة إلى التلفاز، سُمع شجار صاخب بالقبو، فهرع العقيد ومِن خلفه الشباب ينزلون إلى القبو لمعرفة ما يحدث، فإذا بزبونين يتشاجران وقد أشهر كل منهما شظية زجاجة مكسورة في وجه خصمه، حتى كادا يتعاركان عراكا دمويا لولا أن تدخَّل الشباب ليفرقوا بينهما. وكالعادة، كان سبب الشجار تافها لا يدعو إلى السبِّ والتهديد بالقتل.. فأحد الخصمين، أخذ لنفسه وقتا طويلا بالمرحاض للتبول، ما أثار أعصاب خصمه وطفِق يخبط عليه الباب دون جدوى، حتى اضطر إلى إفراغ بوله في إحدى الزجاجات الفارغة. وفيما هو يبحث عن مكان يُخفي فيه زجاجة بوله، خرج خصمه من المرحاض ساخطا مُتوترا، وأخذ يصرخ في وجهه قائلا:

- ما هذا الخبط؟ لقد أزعجتني! ألا تستطيع الانتظار؟

- انتظرت أقصى ما استطعت حتى كادت مثانتي تنفجر!

ثم تساءل قائلا:

ـ ماذا جرى لك يا أخي.. أأنت مسحور حتى تُطيل المُكوث بمرحاض مُظلم مخنوق قذر؟!

تساؤل مُستفز لم يتقبَّله خصمه، فدخل الاثنان في شجار صاخب كاد ينتهي بفاجعة.

انفضَّ الشجار، فغادر الجميع القبو صاعدين الدرج إلاَّ العقيد الذي أنشأ يَكنِس مُطَرِّفا ما تناثر من شظايا الزجاجات الفارغة المكسورة على ضوء خافت واهن يتمتم ساخطا: حيوان.. هَمج!

كان القبو من القذارة والعفونة ما يبعث على النفور والغثيان.. روائح كريهة تنبعث من المرحاض. عناكب ناشرة شباكها. صراصير ضخمة مُريعة تظهر وتختفي في العتمة. جيَّف فئران نافقة. صناديق زجاجات المشروبات الغازية الفارغة مكدَّسة على طول القبو. كراسي مُفككة متراكمة فوق بعضها وطاولات ... حالة من القذارة والفوضى، تعكس مدى إهمال صاحب المقهى لمقهاه، منذ صار يُدمن المُخدرات.

الفصل التاسع: اختفاء زهير

جلست زوجة عيَّاد وبناتها الثلاث حول مائدة الفطور واجمات حزينات. وضعت الأم كِسرة الخبز وكأس الشاي جانبا، وتراجعت إلى الخلف تتنهد في أسى.. لقد فقدت شهيتها للأكل منذ أن اختفى زهير.. ابنها الأصغر صُحبة صديقه حمزة، ولم يترك من أثر سوى رائحة بوله بأقصى الغرفة متجذرة لا تبارح مكانها.

وعلى عكس زوجته، لم يبدِ عيَّاد أيَّ تخوُّف ولا قلق بشأن ولده القاصر المختفي.. فقد أنهى فطوره ذلك الصباح، وخرج ليجلس بعتبة كوخه كالمعتاد. أشعل سيجارة، وأخذ يدخن كابحا سعاله متجاهلا اختفاء ولده وما خلَّفه من قلق وحزن في نفوس الزوجة وبناتها.. لقد تحجَّر قلب الرجل حيال أبنائه ولم يعد يهتم لأمورهم، بل يتمنى لو أنهم اختفوا جميعهم.. هاجروا.. ركِبوا البحر وابتلعتهم أمواجه دون أن تلفظهم. فرغم إشادته بولده الأصغر لحسن خلقه، إلاَّ أنه ظل يعتبره واحدا من إخوته.. قُرصة من ذات العجين قد لا يلبث أن يسلك طريقهم عاقا منحرفا. فما ظل يشغله سوى مصير بناته الثلاث إذا ما قضى نحبه، وأصبحن يواجهن إخوة منحرفين مجرمين لا رحمة في قلوبهم ولا شفقة.

أمَّا البنت الرابعة سعيدة، فحسنا فعلت عندما هاجرت إلى أوربا وأراحت منهم نفسها.

كانت الأم قد أخبرت الشرطة باختفاء ولدها صحبة صديقه حمزة مؤكدة حُسن سلوك الطفلين اليافعين.. إذ ظلا

يعملان معا في مسح زجاج السيارات عند إشارات الوقوف، لا تسكع ولا انحراف.

ظلت البنات يرافقن الأم في بحثها المُضني عن أخيهن المختفي.. إذ بحثن عنه في كل مكان، بما في ذلك المركز السجني الإصلاحي، لكن دون جدوى. أمَّا الأب.. المسؤول الأول والأخير، فلم يحرك ساكنا كأن الأمر لا يعنيه في شيء.

ومع توالي الأيام، بدأت الأم تيأس من عودة ولدها، فأعمى القلق بصيرتها وقادها إلى زيارة العرافة أمي الهاشمية، علها تُخبرها بمكان وُجوده حيا أو ميتا. إلاَّ أن ما ستكشف عنه أوراق اللعب، لم يكن مفهوما واضحا، بل غامضا مبهما متداخلا كأضغاث أحلام

فشِلت الأم في العثور على ولدها المختفي، لكنها لم تفقد الأمل، بل ظلت تترقب عودته من يوم لآخر حائرة في أمره يلازمها الخوف والقلق سيما في ظلمة الليل، عندما يكون الجميع نائما مُستغرقا في نومه يقودهم الأب بشخيره.. فكثيرا ما تخيلته بوجهه الأسمر المستدير، وشعره الأسود الكثيف، فتتساءل في نفسها: «تُرى أين هو الآن؟ ماذا تراه يفعل؟ أهو نائم أم مستيقظ؟ حيٌّ أم ميت؟» أسئلة لا تفتأ تطرحها على نفسها كل ليلة قبل أن تلحق بركب النائمين متعبة من أثر السهاد.

أنهت البنات فطورهن، ونهضن يُباشرن أشغال البيت ويُحضِّرن الغداء، فيما لزمت الأم مكانها كئيبة مطرقة.

وبينما كانت إحدى البنات منهمكة في غسل الأواني بالصحن مُحدِثة بعض الضوضاء، استيقظ المهدي من نومه منزعجا يغمغم ساخطا، ثم مدَّ يده يجر إليه مائدة الفطور المرقعة بجانبه متثائبا تفوح منه رائحة الكحول المنفرة. وبشراهته المعهودة، شرع يلتهم ما تبقَّى من طعام صامتا مركزا لافتات ينفلت منه، ولا حبة زيتون يابسة على عظمها. كانت شقيقاته ينتظرن مغادرته البيت بفارغ الصبر منزعجات متبرمات من حضوره. أمَّا الأم، فأخذت ترمقه من داخل الغرفة في سخط وامتعاض، تتمنى لو أنه اختفى بدل أخيه.

أنهى المهدي فطوره، ثم خرج وصفق الباب خلفه بشدَّة كعادته. لكنَّ أباه بقي هادئا ضابطا أعصابه يُتمتم متعوذا بالله من شياطين الإنس والجن، ثم تطلع إلى أبنه الواقف أمامه يشزره متسائلا:

- ماذا تريد؟

- النقود طبعا.

- لا نقود لديَّ.. اذهب.. كن عزيز النفس، وابحث لك عن شغل تكسب منه النقود بعرقك لا بعرق غيرك! اذهب.. اتركنا وشأننا.. لقد جلبت لنا ما يكفي من الفضيحة والعار!

- مهما يكن هذا العار، فلن يفوق عار مَن يسمح لبنته أن تهاجر إلى خارج بلدها لوحدها، بذريعة العمل طمعا في نقودها!

تُهمة زحزحت الوالد عن مقعده، فنهض يصرخ في وجه ولده ثائرا مُنفعلا:

ـ أقفل فاك القذر أيها السافل الحقير! اغرب عن وجهي! اذهب يا حسود يا حقود!

ـ لن أذهب حتى آخذ مصروف جيبي!

ـ لن تأخذ سنتيما واحدا! اذهب من هنا!

ـ ارم النقود قبل أن أفقد أعصابي!

ـ لكنَّ الأب هو مَن فقد أعصابه، فالتقط حجرا ورفعه في وجه ولده الذي تراجع إلى الوراء، وانحنى بدوره يلتقط ما يصادف من حجر، ليدخل مع أبيه في نزال بالحجارة. وبكل عفوية وتلقائية، انحاز الأطفال إلى صف الأب العجوز، وأخذوا يمدونه بأصلب الحِجار. أمَّا المتزاحمون بالعين، فوقفوا يتفرجون لا مَن يحرك ساكنا أمام الأمر المُنكر...

لم يستطع عيَّاد تفادي أحجار ابنه المتقاذفة كلها، فأصابه حجر في ركبته إصابة أسقطته أرضا يتوجع من الألم. في هذه اللحظة، خرجت زوجته وبناته قلقات مذعورات، وأخذن يولولن ويضربن صدورهن كالنائحات المتفجعات. وبينما سارعت البنات إلى حمل أبيهن إلى داخل البيت كما يُحمل المحارب المصاب، واصلت الزوجة صراخها وولولتها تدعو على الابن العاق، بأشدِّ

عقاب الدنيا والآخرة، وهو ينسحب مبتعدا متوعدا وقد ألقى ما تبقى في جيوبه من حِجارة.

الفصل العاشر: الجُرذ المشؤوم

بعد وجبة العشـاء، وقضـاء بعض الوقت فـي حـديث تصاحبه كؤوس الشاي، انتقلت أسرة الصَّردي إلـى النـوم، فحملت الأم ولدها المعاق الضئيل الجسم بين ذراعيهـا إلـى مضجعه، ثم استلقت على فراشـها بجـواره بعـد أن أطفـأت النور.

استسـلم الأبـوان للنـوم وبـدأ شـخيرهما يتصـاعد فـي تنـاغم. أمَّـا حسـن، فبقـي مسـتيقظا متضـايقا منزعجـا مـن حرارة الجو.. تارة يزيل عنه الغطاء، وتارة يجذبه إليه.

انتصف الليل وانخفض شخير الأبوين يكـاد لا يُسـمع، فساد الصمت والسكون إلَّا مـن تكتكـات السـاعة الجداريـة العتيقة وصفير الجداجد الرتيب القـادم مـن الصـحن. كـان النوم قد بدأ يُثقل جفونه عندما سمع حسن خشخشة طـردت عنه النعـاس، فـأدرك أنهـا لا شـك خشخشـة فـأر كبيـر، أو جرذ تجرأ على اقتحام الغرفة من بابهـا المفتـوح، فاجتاحـه الذعر، وتسارعت دقات قلبه فأخذ ينادي أمه كالمستغيث:

-أمي.. أمي.. استيقظي.. لقد سمعت خشخشة.. إنـه لا شك فأر كبير أو جرذ لعين!

كان الفتى يعاني رهاب تلك القوارض منذ صـغره، إذ كلما لمح فـأرا أو جـرذا، ينتابـه الـذعر والهلـع حتـى يكـاد يرتجف كأنه لمـح أفعـى. سَمعت الأم النـداء، فمـدَّت يـدها تمسك بهراوة غليظة حرِصت على وضعها بجانبها قبل أن تنام، كفزَّاعـة صـوتية تطـرد بهـا القـوارض المتسـللة إلـى الغرفة المظلمة، وطفِقت تخبط بها الحصير في فتور، فعاد

حسن يطلب منها أن تنهض وتوقظ أباه للتحقق من الأمر، فنهضت جاهدة من فراشها تتلمس طريقها في العتمة لتشعل النور، لكنها وجدته مقطوعا، فقالت في خيبة:

-يا لَلحظ العاثر.. الضوء مقطوع!

في هذه الأثناء، استيقظ الصَّردي منزعجا وتساءل:

-ما الخطب ؟

-لعله فأر أو جرذ يا أبي! لقد سمِعت خشخشة! أجاب حسن.

فنهض الصَّردي، واستطرد يتساءل:

-أستغرب كيف بات الضوء ينقطع مع دخول الصيف؟ هذا والله غير مفهوم!

فقالت الزوجة:

-لا تستغرب يا رجل ولا تسخط ونحن نستهلكه بالمجَّان! ليتهم أتمموا معروفهم، فجهَّزونا بالماء الشروب حتى نستريح من تعب العين ومعاناتها!

- والصراصير والجرذان.. ألم تُتعبك مُحاربتها؟!

فتقزَّزت الزوجة واقشعر بدنها لكونها تكره، بل ترتعب لرؤية الصراصير الضخمة العملاقة وهي تخرج من مخابئها في الحر الشديد.

سُمِعت الخشخشة من جديد، فصاح حسن في هلع:

- أسرعي يا أمي! ماذا تصنعين؟ ألم تجدي الشمعة بعد؟

- وجدتها.. لكني لم أجد الولاَّعة!

وجدت الأم الولاَّعة أخيرا، فسارعت تشعل الشمعة. لكنها، وهي تمشي مُركزة بصرها على اللهب الواهن المترنح إلى أقصى الغرفة المظلمة لِتكشف عن مصدر الخشخشة، تعثرت قدماها فسقطت وسقطت الشمعة من يدها، لكنها، وبأعجوبة التقطتها في خِفة مدهشة، فصاح بها الصَّردي كالمذعور:

- ماذا جرى لك يا امرأة؟ كنتِ ستشعلين النار في الغرفة!

بلغ ضوء الشمعة مداه، فلمح حسن جرذا ضخما تحرك لتوِّه يجر ذيله الطويل ليتوارى خلف صندوق قبالته، فصاح الولد في هلع مشيرا إلى الصندوق:

- ها هو هناك! ها هو هناك! لقد رأيته.. إنه ضخم.. جرذ ضخم!

فسأله أبوه وقد تقدم مُمسكا بالهراوة الفزَّاعة متأهبا للمعركة:

- أين رأيته؟

- هناك.. خلف صندوق الأمتعة.. إنه ضخم! ضخم!

أومأ الصَّردي إلى زوجته أن تسلِّط الضوء على الصندوق حيث أشار ولده، ثم أطلَّ برأسه، فإذا بجرذ ضخم قذِر كجرذان المجاري يتخبَّط محبوسا في الفجوة بين الصندوق والجدار الصفيحي لضخامته، بحيث لم يعد بمقدوره التحرك في أي اتجاه، فرفع الرجل هراوته، وهوى بها يدقُّ رأس الجرذ في جنون حتى هشَّمه عن آخره. زحزح الصندوق الثقيل عن مكانه قليلا، وحمل الجرذ من ذيله جثة هامدة خارج الغرفة، ثم رمى به داخل كيس القمامة بالصحن ليتنفس الجميع الصعداء، سيما حسن الذي لبث مذعورا مرتعبا يتابع عمل أبيه البطولي.

لقد اعتادت الجرذان الهجوم على الأكواخ في سكون الليل بحثا عمَّا تملأ به بطونها الفارغة، حتى باتت تشكل هاجسا مرعبا لسكان الدوَّار.. خطرا حقيقيا على الصغار منهم والكبار.

تخلص الصَّردي من جثة الجرذ، وعاد ليستأنف نومه قائلا:

- انتهينا! هيا.. لنعد إلى نومنا!

وبدورها، أطفأت حليمة الشمعة، وعادت إلى فراشها وهي تقول:

- اللعنة على هذا الجرذ المشؤوم.. كنا سنحترق بسببه!

طلب حسن إلى أبيه أن يقفل باب الغرفة حتى لا يتسلل فأر أو جرذ آخر، فقال أبوه:

ـ كيف.. أتريد أن نغرق في عرقنا مع هذا الحر الشديد؟! نم يا ولدي.. نم.

سكت حسن برهة، ثم تساءل عن كيف لهذه الجرذان الضخمة أن تتسلل إلى الأكواخ، دون أن ترصدها قطط الدوَّار الشرسة؟!

فأجابه أبوه:

ـ قطط الدوَّار لا تهتم سوى بالفئران الفتية الطرية السهلة المنال. أمَّا الجرذان الضخمة المريعة، فتغضُّ الطرف عنها، ولا تجرؤ على مهاجمتها. ونحمد الله كونها لا تحمل الطاعون، وإلاَّ حصد الوباء الأسود الأرواح بالجملة، لن تستطيع المقبرة استيعابها.

فانفزع حسن، ثم عاد يتساءل:

ـ ولِم لا ننصب لها أقفاصا فِخاخا عند مداخل الصحون بطعوم مغرية مسمومة قاتلة؟

ـ زمن الفِخاخ قد ولَّى يا ولدي! أمَّا الطعوم المسمومة بما فيها المبيدات، فلم تعد تجدي نفعا مع هذه القوارض كأنها طوَّرت ذكاءها ومناعتها، حتى غدت محصنة فطنة لا تنخدع ولا تقهر! نم يا ولدي.. نم.

حال مُزعج مقلق.. فعلى غرار ساكنة الدوَّار، ظلت هذه الأسرة الصغيرة الهادئة تعاني هجمات الجرذان الجائعة.. إذ سبق للصَّردي الذي ينام في المقدمة، أن تعرض لعضها مرات عديدة. وكلما كان العض عنيفا موجعا، صرخ الرجل من الألم، فاستيقظت زوجته وابنه من نومهما في ذعر وهلع.

استأنف الوالدان نومهما، وعاد شخيرهما يتصاعد وينخفض في مدٍّ وجزر. أمَّا حسن، فبقي مستيقظا ساهدا متوجسا لا يفتأ يتخيل الجرذ الضخم، وهو يمرُق أمام عينيه كالشبح ليختفي خلف الصندوق، فيزيد من رهابه المزمن.

دخل الليل ثلثه الأخير، فبدا الدوَّار غارقا في ظلمته وسكونه حتى خُيِّل لحسن أنه المستيقظ الساهد الوحيد بين السكان، فانتابه الجزع، وأخذ يتقلب في فراشه إلى أن سُمعت أصوات كالجلبة قادمة من بعيد سرعان ما تصاعد صخبها مع دخول أصحابها الدوَّار وهم يقهقهون ويصرخون كالمجانين غير مُبالين لراحة السكان النائمين.. إنهم عصابة المقبرة.. مَن ذا الذي لا يعرفهم؟ لقد غادروا معقِلهم حيث يسهرون في تدخين الحشيش وشرب الكحول طوال الليل، وها هم يعودون في عربدة وتسيُّب يدكُّون الأرض بأحذيتهم الثقيلة مزعجين زارعين التوجُّس في نفوس السامعين ...

توقفت العصابة عند العين، فتسابق أفرادها يتراشقون بمائها المتدفق كالصبيان لا رادع لهم. وإن أزعجتهم كلاب

الساحة بهريرها ونباحها، طردوها بوابل من الحجارة، واستأنفوا عبثهم بالماء يتمازحون في مُجون تخترق ألفاظه الفاحشة الآذان. هكذا دأبهم كلما أسرفوا في الشرب معربدين مخربين لا مَن يوقفهم عند حدِّهم.. بل يصمت الجميع منكمشين داخل بيوتهم يتمنَّون أن تمر ساعتهم بسلام.. فالكل يتحاشى مواجهتهم كمجرمين محترفين خطيرين لا يعترفون بالقانون، ولا تخيفهم أخطر السجون..

استيقظ الصَّردي على ضجيج العصابة، فبقي مُستلقيا في فراشه إلى أن أذَّن الفجر، فنهض يتهيأ للصلاة وقد بدأت ظلمة الغبش تنقشع بالصحن. وقبل أن يشرع في الوضوء، خرج من كوخه متكئا على عكازه، ووقف بمنامته البيضاء الفضفاضة، وشخصيته القوية المَهيبة يحدِّق إلى العصابة في غضب وامتعاض، فالتفت أفرادها يتبادلون نظراتهم مندهشين مستغربين كأنَّ الرجل فاجأهم بجرأته. خانتهم ردَّة فعلهم بعنفِها وفُحشِها، فأمرهم زعيمهم قائلا:

- كفى.. كفى.. دعوا الناس ينامون.

ثم أقفل حنفية العين الصامدة في مكانها، فأخذ الجميع ينسحبون مترنحين صوب بيوتهم ولعنات الرجل من خلفهم تلاحقهم.

ظل حسن قلقا على أبيه مِن أن تهاجمه العصابة، ولم يطمئن على سلامته إلاَّ بعد أن سمِعه يعود ويقفل الباب بالمِزلاج.

شرع الصَّردي يتوضأ استعدادا لصلاة الفجر. وما كاد يُنهي وُضوءه وصلاته، حتى كان حسن قد استسلم للنوم.

الفصل الحادي عشر: العُرس

عصر اليوم الموالي لقتله ذلك الجرذ المشؤوم، خرج الصردي من بيته، وذهب لمجالسة حفيظ بمقر عمل هذا الأخير كعادته. وصل العم، ألقى التحية، وجلس إلى جوار ابن أخيه يتتبعان ما يجري غير بعيد عن مجلسهما من حركية دائبة أمام خيمة نُصبت بمحاذاة عمارة سكنية لاحتضان حفل زفاف على غرار ما نراه في البادية.

كانت خيمة ضخمة مزدوجة أقفلت المدخل الشمالي للشارع الفرعي حيث يعمل حفيظ حارسا للسيارات والدراجات النارية ولم تترك منه، سوى ممر ضيق بالكاد يتّسع للراجلين العابرين ... كانت الزغاريد ترتفع عالية من حين لآخر لتبارك الحدث السعيد؛ زغاريد معبِّرة انتهزها الصردي فرصة ليسأل ابن أخيه بصوت خفيض:

-أمَا فكَّرت في الزواج يا ولدي ؟

فتساءل حفيظ في نبرة يائسة:

-كيف تسألني هذا السؤال يا عم، وظروف معيشتي لا تخفى عليك؟ فحتى وإن فكرت في الزواج ثانية، فأين هي هذه المرأة التي سترضى العيش مع حارس سيارات بسيط، يسكن كوخا صفيحيا مشتركا؟

-موجودة!

-ابتسم حفيظ، وتساءل في اندهاش:

-بهذه السرعة وجدتَها يا عم؟ ومَن تكون.. مِن سكان الدوَّار؟

-صالِحة.. بنت عمتك.. فأمها التي طالما شغلتها عن الزواج بمرضها، توفاها الله كما تعلم، ولم يعد لها من عذر تقدمه لخطيب ترضاه زوجا لها، سيما إذا تعلق الأمر بابن خالها تعرفه ويعرفها. إنها فتاة طيبة بشوشة ظريفة ستؤنسك في وحدتك، وتخفف عنك عبء العيش كخياطة عصرية ماهرة تتقن فن الخياطة والتطريز. مَن يدري.. فقد تكون قدماها فأل يُمن وسعادة. انس زواجك الأول، وتوكل على الله!

فالتفت حفيظ ينظر جهة الخيمة كالمتفكر، ثم عاد يتساءل:

ـ لكن، هل سيرضى أبوها مصاهرة خطيب ضعيف الحال مثلي يسكن دوَّار الشوك؟

ـ كأنك تتحدث عن أسرة ثرية غريبة عنا.. إنهم أناس بسطاء ضعفاء مثلنا! دع الأمر لي.. سأكلم أباها في الموضوع ولن يردني خائبا.. أنا واثق من ذلك. أمَّا صالحة، فلا أراها إلاَّ راضية موافقة.

توقفت سيارة بالقرب من خيمة العرس، وأخذ صاحبها يضغط على بوقها بقوة مُحدِثا ضجيجا مزعجا. كانت سيارة بيضاء فارهة زُيِّنت بأشرطة ملونة، وباقة ورد متناسقة متناغمة ألوانها الزاهية. لقد هُيِّئت مُبكرا، لتنقل العريس وعروسته في جولة عبر شوارع المدينة كما جرت العادة في السنين الأخيرة.

وعلى غرارها، أطلقت سيارات أخرى العِنان لأبواقها معلنة جاهزيتها للموعد المنتظر في صخب لا يُحتمل.

وفي خضم الصخب المتصاعد، توقفت سيارة في هدوء، فترجَّلت عنها العروس قادمة من صالون للحلاقة والتجميل خجولة تحيط بها النسوة وهي تدخل العمارة حيث شقتها بالطابق العلوي، لِترتفع الزغاريد من جديد، في جوٍّ بهيج حماسي

في هذه الأثناء، كان حفيظ يساعد أحد زبائنه موجِّها إياه للخروج بسيارته من حِصار سيارات خَلقت الفوضى والعشوائية في وُقوفها وتحركها بسبب الخيمة الضخمة الثابتة أوتادها في الإسفلت الصلب كحاجز لا سبيل لتجاوزه. كان التوتر باديا على الزبون وهو يحاول الخروج بسيارته في تسرُّع وارتباك ظاهرين.

عاد حفيظ إلى مجلسه بعد أن ساعد الزبون على الخروج بسيارته وانطلاقه صوب وجهته، فقال الصردي كالمتسائل:

ـ بدا لي الرجل متوترا مرتبكا في تعامله مع سيارته حتى كاد يصدم السيارة خلفه!

ـ لقد أربكته بوادر حفل صاخب مُطوَّل، حتى أنه آثر المبيت وأسرتَه هذه الليلة عند أخيه بالمحمدية، كيلا يقضي ليلته ساهدا مُنزعجا في مسكنه المحاذي لدار العرس. قال حفيظ.

-مؤسف حقا! علق الصردي باقتضاب.

غربت الشمس وحلَّ المساء، فبدأت رائحة الطبخ المتميزة للَّحم والدجاج تنبعث من مرأب خُصص للطهو قبالة خيمة العرس المزينة المفروشة بالزرابي. أُشعلت الأضواء، فبدأ أفراد الجوق الشعبي يتقدمهم العوَّاد، يُدَوزنون آلاتهم استعدادا للعزف في لغط موسيقي. عن يمينهم، جلست الراقصات يجرين على مظهرهن آخر اللمسات تأهبا للرقص والغناء، وقد امتلأت الخيمة بالمدعوين الذين جلسوا ينتظرون انطلاقة العرض الغنائي الراقص، وأشكال الحَلوى تُفرَّق عليهم تُصاحبها كؤوس الشاي كمقبلات جرت بها العادة، في مثل هذه المناسبة السعيدة.

انطلق الحفل برقصه وغنائه في صخب يصل صداه الشارع العام عبر مكبر الصوت، فنهض الصردي يودِّع ابن أخيه قائلا له بصوت مُرتفع كي يسمعه :

- اطمئن بشأن صالحة.. سأكلم أباها في الموضوع وأردُّ عليك الجواب.

الفصل الثاني عشر: عرض العرافة

ذات يوم، أمرت العرافة أمي الهاشمية زوجها أن يتصل بشقور زعيم عصابة المقبرة، والتحدث إليه على انفراد عارضا عليه عملا سريا مقابل مبلغ مالي محترم. أطلعت العرافة زوجها على طبيعة العرض، فخرج الزوج العجوز يبحث عن شقور بالأماكن التي اعتاد أفراد العصابة ارتيادها ليعثر عليه بأحد المقاهي جالسا يلعب القمار، فانفرد به ـ بعد أن استأذنه ـ خارج المقهى وصخبه، ليبلغه عرض العرافة المتمثل في نبش قبر امرأة مُسنة حديثة الدفن، واستخراج جثتها تحت سُتر الظلام بغرض السحر، ثم إعادتها إلى قبرها سليمة كما أُخرجت، في عملية خُطط لها بعناية، مقابل عشرة آلاف درهم بالتمام والكمال. وأمام اندهاش شقور لِطبيعة العرض وغرابته، أردف العجوز بصوته الخفيض:

ـ كن مطمئنا.. سيمر كل شيء على ما يرام، ولن تستغرق العملية أكثر من ساعة حتى تُعاد الأمور إلى نصابها بعد أن تكون العرافة قد أخلطت بيديِّ المرأة الميتة، مِقدارا من "الكُسكُس" الناشف المفتول ستسلمه لزبون وفيٍّ ميسور، كوصفة سحرية تتطلب الكِتمان والسرية.

تسمَّر شقور في مكانه يحملق إلى العجوز في ارتياب، لكنه ما لبث أن خفض رأسه يتفكر في الأمر محدِّثا نفسه: «ولِم لا والمقبرة ما مِن حارس لها بالليل سوانا؟».

كذلك فكَّر شقور وقَبِل عرض العرافة حتى دون أن يستشير أفراد عصابته، فشدَّ العجوز على يده بحرارة كأنه

يشكره مذكِّرا إياه بضرورة الكِتمان في مثل هذه الأمور، ثم أضاف قائلا:

فور عثورنا على ضحيتنا بعون الله وتيسيره، سنعيد الاتصال بكم، لنخبركم بتفاصيل الخطة المتخذة. إلى اللقاء.

كان بإمكان العرافة أن تكتفي بمساعدة زوجها والفقيه الذي يعمل معها للقيام بالعملية دون اللجوء إلى شقور وعصابته، لكنها تعلم أنَّ هؤلاء المجرمين، يشكلون حاجزا منيعا لا سبيل لتفاديه دون مقابل في عملية كهذه.. فهم من مجلسهم، حيث يقضون لياليهم في معاقرة الخمر حتى الفجر، يستطيعون مُراقبة المقبرة من كل جهاتها.. إذ لا مفر من إشراكهم في جريمتها، وإلاَّ طردوها وفضحوها في الدوَّار، مفوِّتين عليها عملا من ورائه مال كثير.

ما إن اجتمع أفراد العصابة بمجلسهم جوار المقبرة مساء ذلك اليوم واكتمل عددهم، حتى سارع شقور يخبرهم بعرض العرافة وما دار بينه وبين زوجها. وكالعادة، لم يكن لديهم رأي ولا اعتراض، فوافقوا مؤيدين معتبرين العملية سهلة مُربحة لا خطورة فيها، إذ قال أحدهم:

- سوف لن نقتل ميتة أماتها الله، أو نشوِّه جثتها.. كلما في الأمر، أن المرأة ستُدفن مرتين، وما علينا سوى إعادتها إلى حفرتها بعناية ودقة، دونما أثر يثير القلق والشكوك لدى عائلتها.

رحَّب الجميع بعرض العرافة جاعلين منه موضوع حديثهم تلك الليلة فرحين متحمسين يملؤون كؤوسهم بالنبيذ

الرخيص، ليقرعوها كأنهم يحتفلون مسبقا بـأغرب عمليـة إجرامية مُربحة في مسارهم الإجرامـي سينتظرون ليلتها بفارغ الصبر.

الفصل الثالث عشر المعجزة

ذُهل حسن أشدَّ الذهول والعجب يكاد لا يصدِّق ما شعر به من معجزة طالما تصوَّرها في أحلام يقظته.. فقد شعر الفتى بأطرافه السفلى قد دبَّت فيها الحياة ولم تعد مشلولة ميتة، بل تحرَّرت من شللها في مرونة مدهشة. أزال عنه الغطاء يخفق قلبه فرحا، ونهض من فراشه معتمدا على نفسه وقد تملَّكه شعور غريب وهو يقف لأول مرة في حياته على رجليه، ثم مضى يتمشى في الغرفة حذرا يتوازن بذراعيه المفتوحتين كالبهلوان على الحبل.

تفاجأت أمه وهي تدخل الغرفة حاملة صينية الفطور عندما رأت ولدها يتمشى أمامها سويا معافى حتى أنها، ولِشدة فجأتها واندهاشها، فقدت السيطرة على يديها فسقطت الصينية مُحدِثة ضجَّة أيقظت الصردي من نومه مذعورا منزعجا يصيح:

- ما هذا؟ ماذا فعلت يا امرأة؟

فأشارت إلى ولدها تحملق إليه في ذهول، فيما تجمد الصردي في فراشه متعجبا لا يصدق ما تراه عيناه. اقتربت الأم من ولدها، وانحنت تتفحص رجليه برفق وحذر كأنها تتأكد من شفائهما، ثم ارتمت عليه تعانقه فرحة متسائلة :

- كيف.. ولدي يتمشى على رجليه؟! أهذا يُصدَّق؟! شكرا لك يا رب!

نهض الصردي من فراشه، وبابتسامته العريضة، انحنى بدوره على ولده يضمه إلى صدره فرِحا مبتهجا

بشفائه. في هذه الأثناء، ارتفع صياح الأطفال وهم يلعبون الكرة بالساحة، فخرج حسن يهرول متحمسا لينضم إليهم مُظهِرا قدرته على اللعب. ولتوِّه، التقط الكرة، وقذفها بقدمه عاليا إلى السماء، فطارت صاعدة كالصاروخ لتختفي وراء السحب ضائعة في الفضاء. لم يغضب الأطفال ولم يهتموا لِضياع الكرة، بل التفوا حول حسن منذهلين متعجبين يركِّزون النظر على رجليه كأنهم يتحققون من المعجزة، ثم ارتموا عليه يعانقونه فرحين يرددون: حسن.. حسن..

تخلص حسن من عناق الأطفال وتشبثهم به، وانطلق يركض سعيدا ضاحكا صوب المقهى وغبار الساحة يتطاير من خلفه إذ ما إن رأته أمي نجمة الواقفة بالعين، حتى صاحت مشدوهة تشير بيدها إليه:

ـ انظروا إلى حسن.. إنه يركض كالحصان! يا لَلعجب!

فالتفت المتزاحمون حول العين ينظرون إلى الفتى في تعجب وذهول. أمَّا شباب المقهى، فما إن رأوه يتوقَّف عند الرصيف لاهثا متعبا، حتى خرجوا يحملقون إليه في اندهاش واستغراب.. فالفتى المعاق كما عرفوه، غدا ـ بقدرة قادر ـ يتمشى أمامهم كأي شخص سوي، بل ويقفِز مُتفننا في القفز ليُثبت مدى سلامة رجليه ومرونتهما، ما أفرحهم وأسعدهم، فأحاطوا به يعانقونه فرحين مهنئين وقد انضم إليهم صاحب المقهى وصديقه جعفر السمسار، إلى

جانب النادلة فدوى، والعامل خلف الكونطوار. أمَّا العقيد، فرفعه من خصره ضاحكا فرحا به على طريقته.

أنهى حسن جولته مُستعرضا أطرافه السفلى بعد أن تلقى ما يكفي من التهاني والعناق، فعاد إلى بيته يركض ثانية مؤكدا لنفسه قبل غيره تعافيه من شلله. وفي طريقه، توقف عند كوخ جارهم عيَّاد كآخر محطة لجولته الاستعراضية وأخذ يطرق بابه، إلاَّ أنه سرعان ما تراجع إلى الوراء خائفا مذعورا يتمتم معتذرا.. فقد انفتح الباب في لمح البصر، وظهر هيكل عظمي يضع شعرا مستعارا مغبرا على جمجمته تماما كشعر المهدي. أقفل الهيكل الباب بعنف، فتراجع حسن مبتعدا في خيبة وندم، لكنه ما لبث أن استعاد سعادته ونشاطه وهو يدخل بيته ليجد أبويه في انتظاره.

ظلت الأم فرحة بولدها، لكنَّ الوالد بدا قلقا متحفظا، وتطلع يرنو إلى ولده العائد من جولته كالمتحسر، ثم التفت إلى زوجته الغارقة في فرحها يحذرها قائلا:

- إياك والفرح الزائد.. فاليوم تفرحين وتهللين، وغدا ينقلب فرحك بكاء ونحيبا عندما يفشل ولدك السوي السليم، في الحصول على شغل يمكِّنه العيش الكريم، فيركب البحر مهاجرا مخاطرا بحياته كما فعل أخوه عمر! أترغبين في رزيئة ثانية؟

تفاجأ حسن مُستغربا كلام أبيه كما تفاجأت حليمة، فالتفتت إلى زوجها تقول له:

ـ ما هذا التشاؤم يا رجل؟! مَن يدري.. فقد يحصل الولد على شغل يعيش منه راضيا مقتنعا هنا في بلده بدل هجرة محفوفة بالمخاطر. ولِمَ لا يتزوج؟ ألا ترغب في أن يكون لك أحفاد؟

ـ زواج.. شغل.. أنتِ تخرفين يا امرأة.. عن أي شغل تتحدثين؟

عكَّر الصردي جوّ أسرته بتشاؤمه، فخبا بريق البهجة في عيني زوجته وأخذت تردد بصرها بين الأب وولده حائرة قلقة، ثم رفعت رأسها ترنو إلى صورة ولدها البكر البارزة المعلقة بمدخل الغرفة، فبدت لها مُضبَّبة مضطربة تنعكس طافحة على سطح البحر عائدة بذاكرتها إلى يوم وقفت أمام جثة ملفوفة مُغطَّاة، وكشفوا لها عن وجه ابنها الشاحب لِتتعرف عليه بمستودع الأموات. وهي تستحضر ذلك المشهد الصادم المؤلم، لم تتمالك نفسها، وأطرقت تذرف دموعها، فسارع حسن يضمها إلى صدره كأنه يسألها المعذرة، لكنها تملصت منه وراحت تسترحمه ألاَّ يحذو حذو أخيه عمر، فيلقى نفس مصيره غريقا في البحر.

رقَّ الصردي لِحال زوجته يُقاسمها الأسى والألم، والتفت إلى ولده يقول له:

ـ اسمع يا ولد.. عُد إلى مقعدك.. ارحمنا وارحم نفسك.. فالخير كل الخير في إعاقتك.. إذ لولاها لَما سمح لك السيِّد توفيق ببيع سجائرك برصيف مقهاه. كن عاقلا

راضيا بقدرك.. لا تفرِّط في إعاقة تُكسبك بعض النقود دون عناء، وعطف المحسنين الكرماء. لا تكن حالما واهما مغرورا تتباهى بمعجزة لا طائل من ورائها.

- نعم يا ولدي.. اسمع كلام أبيك. قالت الأم برجاء وهي تكفكف دموعها.

صُدِم حسن مندهشا مستغربا كلام أبويه حتى أنه بدأ يشكك في نيتهما، فتراجع إلى الوراء يهمُّ بالخروج، لكنَّ أباه صاح به أن يعود إلى مقعده، فثار الولد وركل مقعده ليرتطم بالصفيح مُحدِثا ضجيجا مُدويا، ثم تساءل في غضب:

- هل جُنِنت يا أبي؟ أهذا معقول؟ كيف أجلس على كرسي متحرك وأنا سوي أتمشى على رجليّ؟! كيف أعود إليه وقد حرَّرني الله منه؟ لا.. لن أعود إليه حتى وإن استحال ذهبا خالصا! كيف تطلب مني العودة إلى إعاقتي وكأنَّ الأمر بيدي؟ هذه إرادة الله وقدرته.. معجزة تفضَّل بها عليَّ سبحانه، فكيف أرفضها؟!

وأمام اندهاش أبويه، طفِق حسن يُحرك رجليه كالمتأهِّب لسباق العدْوِ، ثم خرج يركض من جديد عائدا إلى المقهى، فخرجت أمه مهرولة تصيح به:

- حسن.. حسن.. عُد إلى البيت! إلى أين أنت ذاهب؟

- لا تقلقــي.. ســأعود.. ســأعود.. لــن أفــارقكم بهــذه السرعة.. كوني مطمئِنة.. فلا بحر هادر متوعِّد يلـوح فـي الأفق، ولا قوارب موت!

توقَّف حسن عند رصيف المقهى، لكنْ لا أحـد اكتـرث لعودته، بل تجاهله الجميع - بمن فيهم العقيد - فوقف خائبـا يستغرب الأمر. التفت يسـرة، فـإذا بركنـه قد احتلـه شـاب أقطع يبيع السجائر مُستخدما يده الوحيدة في خِفـة مدهشـة، فشعر ببعض الحنـين إلـى ركنـه، وانتابتـه الغيـرة من هـذا البديل الغريب وقد أحاط به الزبائن يقتنون سجائره.

لم يكترث حسن للأمر طويلا، بل سـرعان مـا تجاهلـه واستدار عائدا أدراجه يركض نشيطا ضاحكا. قطع نصـف الساحة، فشعر بشيء يلاحقه كالظل، فالتفت فإذا هو مقعـده المُدولب يتبعه ككلب مُخلـص وفـيٍّ يجـري وراء صـاحبه. وفي هذه اللحظة، أيقظته أمه:

- حسن.. استيقظ.. إنها الثامنة.. استيقظ يا ولد!

فاستيقظ حسن جاحظا عينيه كالمذعور، والتفت ينظـر جهة الصحن، فإذا بمقعده ينتظره مركونا بركنه المعتاد.

الفصل الرابع عشر كوخ العرافة

كان الوقت عصرا عندما عادت العرافة أمي الهاشمية من مأتم بعد أن عزَّت إحدى زبائنها في وفاة والدتها المسنة. وفور عودتها، أرسلت في طلب شقور زعيم عصابة المقبرة.. لقد مضى شهر على موافقة الزعيم لعرض العرافة، وها هو يتوجَّه إلى كوخها مُستجيبا لدعوتها يُثير فضول الجيران واستغرابهم، إذ ما إن شاهدوه بخَلقه المفتول كالربَّاع، وذراعيه الموشومتين يدخل كوخها وراء زوجها حانيا رأسه، حتى أخذوا يتساءلون فيما بينهم عمَّا جاء بهذا الوحش إلى بيت العرافة؟ وبدورها، سارعت أمي نجمة لِتنضم إليهم بدافع التجسس، لكنَّها ستعود خائبة كغيرها.. إذ الأمر في منتهى الغموض والسرية.

جلس شقور حيث قاده زوج العرافة في غرفة ضيقة شبه مظلمة كمغارة يغشاها دخان متصاعد من أحد المجامر، فاستشعر رهبة، وأنشأ يجول ببصره يحاول جاهدا معرفة ما بداخل الغرفة، إذ بالكاد استطاع أن يتبيَّن ما يتدلَّى من السقف من مباخر كالنَّباريس في شكلها، تتخلَّلها جلود وفِراء حيوانات بين سامة ومفترسة. لم يستطع مقاومة دخان البخور، فأخذ يسعل كالمخنوق. نظر أمامه حيث مجلس العرافة بمتَّكئه ووسادته العريضة، فإذا به يرى عن يمين المجلس حيوانات محنَّطة من حرابي، ضفادع، حراذين وضِباب بأذنابها الخشِنة مُلِئت بالحَنوط تكاد تنفجر. وعن اليسار، بواقيل أعشاب غريبة وأدوات لا تقل عنها غرابة، ناهيك عن ورق اللعب، رصاص، وفناجين مقلوبة.

أحسَّ شقور بصداع في رأسه، وجشأت نفسه، فأخذ يضغط على صدره كأنما يكبح غثيانه حابسا أنفاسه في تقطُّع كغطَّاس تقليدي بين غطس وصعود. وبعد انتظار طويل يطبعه الجزع والقلق، انتبه الزعيم إلى جسم بدين يخترق دخان البخور كشبح يتقدم ببطء ليجلس في رزانة مصطنعة.. إنها أمي الهاشمية، العرافة الشهيرة التي ما إن استوت في جلستها جاهدة متربِّعة وألقت التحية، حتى أُشعِل مصباح كهربائي أظهرها وهي تمسِّد جفونها المنفوخة المتورِّمة من أثر ما ذرفته من دموع تماسيحية كاذبة بالمأتم وهي تشارك أهل المرأة المتوفاة بكاءهم ونواحهم. كانت ترتدي فستانا أحمر قانيا فضفاضا، وتلف رأسها بما يُشبه الشِّال على شكل عمامة. ودون مقدمات، بادرت تُخبر الزعيم بصوت مبحوح:

- لقد تمَّ دفن المرأة - ضحيتنا المنتظَرة - بعد ظهر اليوم، وعلينا أن نكون متواجدين عند مطلع سور المقبرة الشمالي بُعيد منتصف ليلة الغد ومعنا أدوات الحفر اللَّازمة، جاهزين مستعدين للعمل.

سكتت لحظة كأنها تسترجع أنفاسها، ثم استطردت تقول:

- لقد حضر زوجي والفقيه الذي يعمل معي، تشييع الجنازة لمعرفة مكان القبر، ورقمه، وعلامته حتى لا نُخطِئه.

ثم مالت بجسمها الثقيل لتُخرج من تحت اللبدة الجالسة عليها ظرفا مطويا، وأعطته لـرئيس العصـابة وهـي تقـول له:

ـ هـذا رُبـع المبلـغ المتفـق عليـه كعُربـون، والبـاقي ستحصلون عليه بعـد يـوم أو يـومين مـن إتمـام العمليـة إن شاء الله.

تسلَّم شقور الظرف، وانتصب واقفا، ثم قال :

ـ حسنا.. كوني مطمئنة.. سـنكون فـي الموعـد، ومعنـا أدوات الحفر اللَّازمة. سيتمُّ كل شـيء علـى مـا يـرام. إلـى اللقاء.

ثم دسَّ الظرف في جيبه، وخرج كما دخل حانيا رأسه يُسرع مُبتعدا إلى أن تجاوز آخر كوخ في الزقاق.

مساء ذلك اليوم، وعلى غير العادة، تـأخَّر شـقور عـن الموعد، فقلِق عليه رفاقه، وجلسوا ينتظرونـه إلـى أن رأوه قادما كشبح في الخلاء المظلم يلوِّح بمصـباحه اليـدوي فـي إشـــارة خاصـــة بالعصـــابة، فوقفـــوا يبادلونـــه الإشـــارة بمصابيحهم.

وصـل الـزعيم وقـد بـدا مُتعبـا مُنهكـا يحمـل كيسـا بلاستيكيا في يده. ألقى التحية، ثم وضع الكيس جانبـا وهـو يقول:

ـ هذا دجاج مشـوي اشـتريته فـي طريقـي مـن مطـاعم الساحة.

ثم، وأمام اندهاش الجميع، أخرج زجاجة " ويسكي" من تحت حزامه وأردف يقول:

- أمَّا هذه الزجاجة.. فكان علي الذهاب إلى أقصى المدينة القديمة كي أشتريها من عند تاجر مهرب بالثمن المناسب.

ثم جلس واضعا الزجاجة أمامه. أشعل لفيفة حشيش، وراح يحدِّث رفاقه عن لقائه مع العرافة، وعمَّا دار بينهما قبل أن تعطيه ما أعطته من نقود اشترى منها دجاجا وخمرا احتفالا مسبقا بالمناسبة.

لاحت الفرحة في الوجوه، وطفِق أحدهم يلامِس الزجاجة الذهبية في إعجاب كأنه يدغدغها، ثم قال:

-إنه والله لزمن طويل، لم أذق فيه قطرة من هذه الخمرة الصافية الشقراء!

- وأنا كذلك. قال آخر، ثم أردف:

-برأيي أن نؤخر احتساءها إلى ما بعد احتساء النبيذ، حتى يكونَ خِتامه مِسكا.

رحَّب الجميع برأي رفيقهم، وشرعوا يملؤون بطونهم بالدجاج ويحتسون الشراب. لقد أكلوا وشرِبوا، وتغنوا بأغانيهم التافهة الماجنة رافعين أصواتهم يُزعجون الموتى بجوارهم قبل الأحياء.

أنهـى شـقور وعصـابته ليلـتهم الخمريـة السـاهرة مـع بزوغ الفجر كعادتهم. وقبـل أن يغـادروا، ذكَّـرهم زعـيمهم بما ينتظرهم الليلـة القادمـة مُحـذرا إيَّـاهم مـن مغبـة إفشـاء السر لأي كان.

الفصل الخامس عشر المفاجأة

انتصف الليل، وعمَّ السكون الدوَّار، فخرجت العرافة من كوخها إلى جانبها زوجها، والفقيه، ورجل غريب؛ خرجوا في حذر كالمتسللين متنكرين في جلابيب داكنة يقطعون الزقاق المظلم الخالي إلاَّ من قطط تتعارك فيما بينها بشراسة صاخبة أفزعت العرافة، فأخذت تُبسمِل مُتمتمة دفعا للأرواح الشريرة.

كان ذلك الغريب، رجلا كهلا يحمل في يده قُفة جُمع بداخلها " كُسكس" ناشف مفتول في رزمة من كتَّان أبيض كالكفن. كان الرجل يعرج عرجا مُجهدا. حظي بثقة مخدومه زبون العرافة.. الرجل الثري صاحب الكسكس، فأرسله ليعاين مدى صحة العملية ودِقتها، قبل أن يُعيد إليه القفة بكسكسها جاهزا للسِّحر.

اجتازت العرافة ومرافقوها الزقاق دون أن يلحظهم أحد، ثم انعطفوا شرقا صوب المقبرة يمشون في الظلمة بحذر كالعُميان. وعند وصولهم، وجدوا شقورا وعصابته في انتظارهم حاملين معاول سرقوها بالمناسبة؛ وجدوهم بالمكان المتفق عليه يتجشَّأون ثملين، ما أخاف العرافة وأقلقها، لكنها سرعان ما تجاهلت الأمر، وبادرت تأمر الرجال حولها:

هيَّا يا رجال.. إلى العمل!

فبدأ الجميع يتسلقون سور المقبرة الوطيء دون عناء، إلاَّ العرافة وجدت صعوبة في التسلق لِبدانتها الزائدة،

فسارع زوجها والفقيه يتعاونـان علـى رفعهـا فـوق السـور وإنزالها بسلام.

صـار الجميـع داخـل المقبـرة، فأشـعلوا مصـابيحهم اليدويـة، وأخـذوا يسـيرون عبـر ممـرات القبـور الضـيقة صوب قبر الضحية يقـودهم الفقيـه. وفـور وُصـولهم القبـر مُسلطين عليه أضواء مصابيحهم، أمرت العرافة بالشـروع في العمل بسرعة ودقة.

كان الصمت رهيبـا موحشـا زادت مـن وحشـته ريـاح الخريـف العاصـفة، وظلمـة بـدا فيهـا الجنـاة كأشـباح وهـم يتحركـون بمصـابيحهم. ومـا إن رُفعـت المعـاول لإزالـة التراب عن القبـر واسـتخراج الجثـة، حتـى فاجـأهم رجـال الشرطة بأسلحتهم وحاصروهم حصارا محكما لم يجدوا له منفـذا للهـرب، فتجمَّـدوا فـي أمـاكنهم متلبسـين بجـريمتهم مـذعورين كالطرائـد المحاصَـرة يحمـون أعيـنهم مـن الأضواء السـاطعة المسلطة علـى وُجـوههم الشـاحبة. لقد فاجأهم رجال الشرطة، بعد أن ترصَّـدوهم متنكـرين داخـل ورشة لِصنع الآجر خلف المقبرة.

وكما سيتبين لشقور ورفاقـه، لـم يكـن الواشـي، سـوى فـرد مـنهم تخلَّـف عـن الموعـد تلـك الليلـة بـداعي مغَـص مَعوي. كان لِصا نشَّالا ماهرا في النشل تعرَف عليه أحدهم بإحـدى محطَّـات النقـل الحضـري، فعمِـل علـى ضـمِّه للعصابة. كان غريبا عن المنطقة ولا أحد يعـرف عنوانـه. حظي بثقة الزعيم لاحترافيته وانضباطه، لكنه فاجأ الجميـع بوشايته واختفى عن الأنظار مُريحا ضميره.

شـــاع خبـــر اعتقـــال الجنـــاة، وانكشـــفت جـــريمتهم بتفاصيلها، ففرِح سكان الدوَّار، وتمنوا لهم أقصى العقوبـة. أمَّا خصوم العرافة، فطالبوا بإغلاق كوخها بعد إتـلاف مـا بداخله من أدوات الشعوذة، وحيوانات محنَّطة ...

الفصل السادس عشر الزوبعة

بشعور من الحسرة والأسى، قام حفيظ يودِّع ابنته الصغيرة في قبلات الأب الحنون بعد أن ملأ منها عينيه ما استطاع وهي تلعب أمامه رشيقة أنيقة بكِسوتها الوردية الجميلة، أو ترتمي بين أحضانه فرحة ضاحكة. لقد جاء بها جدُّها لزيارة أبيها بمقر عمله كالمعتاد موفيا بوعده، وها قد انتهت الزيارة عند العصر، وعلى الجد أن يعود بحفيدته إلى أمها الحاضنة.

اختفت الطفلة صحبة جدّها عن ناظريه، فاستأنف حفيظ عمله حزينا متحسرا.. إذ لو لا سوء حظه وعطالته، لَما طالبت زوجته بالطلاق لعدم الإنفاق كاشفة عن معدنها، ولَما تفككت أسرته الصغيرة بعد تماسكها، بل ولَما نعتته هذه الزوجة بالرجل الفاشل، المتخلف الجاهل المؤمن بالخرافات والأحلام، بعد فشله في هجرته إلى أوربا، وعودته صفر اليدين مريضا محبطا محطَّما...

مالت بضع دراجات نارية على بعضها بفعل زوبعة قوية هائجة تثير العجاج، فسارع الحارس يعيدها إلى صفوفها منتظمة ثابتة. وفيما هو يقوم بعمله، باغته شخص بطعنة في بطنه ولاذ بالفرار. كانت طعنة عنيفة بليغة ترنَّح لها الضحية قبل أن يسقط متوجِّعا يسيل دمه. كان الجاني شابا ملتحيا، مديد القد، يضع على رأسه طاقية ضيقة سوداء فاحمة غطَّت جبهته وحاجبيه، فبدا في تنكُّره كلصوص السطو على المصارف.

اختفى المجرم الهارب، فسارع الناس يتحلقون حول الضحية في قلق وأسف. ولخطورة الطَّعنة، بادر أحدهم

بإبلاغ المستعجلات. وبعد انتظار طويل، حضرت سيارة الإسعاف تتصاعد أبواقها، لكنَّ الضحية فقد الكثير من دمه، فبدا شاحبا يتردد نفسه كالحشرجة وترتعد يداه بين الحياة والموت. في هذه الأثناء، كان الصردي قد ترجَّل عن حافلة قادما من الحي المحمدي حيث كان في زيارة ابنة أخته صالحة بعد أن شُفي من مرض ألمَّ به. ولتوِّه، توجَّه صوب الشارع الفرعي حيث لا زالت آثار خيمة العُرس المزدوجة محفورة في الإسفلت، ليزفَّ إلى ابن أخيه خبر ترحيب والد صالحة بفكرة الزواج التي كانا ناقشاها معا. أمَّا الفتاة، فرحَّبت على طريقتها خجولة مُبتسمة، وما عليه، إلاَّ أن يتقدم لِخِطبتها.

كان الصردي يحاول الإسراع في مشيه جاهدا متكئا على عكازه كأنه يسابق الزمن. دنا من الشارع المذكور، فبدا له حشد من الناس لا يزالون محتشدين بمسرح الجريمة، فاعتراه الخوف والقلق، وتسارعت دقات قلبه عندما تقدم أحدهم يعرف صِلته بالضحية، ليخبره عمَّا تعرض له ابن أخيه من اعتداء نُقل على إثره إلى المستعحلات في حالة حرجة. تسمَّر الصردي في مكانه مصدوما يكاد لا يصدق ما سمع، ثم اقترب يتوسَّل إلى أحد المحتشدين أن يوصله إلى المستشفى ليطمئن على ابن أخيه، فأردفه هذا الأخير على دراجته النارية، وانطلق به مُسرعا يختصر الطريق.

فور وُصوله، توجَّه الصردي إلى قسم المستعجلات ليسأل عن ابن أخيه ويطمئن عليه، إلاَّ أن الخيبة كانت في

انتظاره عندما أخبروه بوفاته عقب نزيفه الحاد، فصُدم الرجل مُهلِّلا مُرجِّعا، وانحنى يتكئ على عكازه كمن أصابه الدوار.

كان قسم المستعجلات مُمتلئا غاصا بالجرحى والمصابين في حوادث مختلفة ذلك اليوم، ما ولَّد ضغطا وارتباكا ظاهرا على المسعفين من أطباء وممرضين وهم يستقبلون المزيد من الحالات المستَعجَلة.

لم يقو الصردي على الوقوف طويلا، فدلف إلى قاعة مُكتظة بالمرافقين والزوَّار يصل صدى لغطهم مدخل المستشفى، وجلس على مقعد شاغر مُطرقا حزينا باكيا تتقاطر دموعه على لِحيته البيضاء صافية شفَّافة تعكس مدى تأثره بوفاة ابن أخيه. أخرج منديله من جيبه، وأخذ يكفكف دموعه مُحدِّثا نفسه: «الشقي.. فلا الحياة كانت رحيمة به ولا الموت! رحمك الله يا ابن أخي! رحمك الله!» .

بعد بحث وتحقيق، ألقت الشرطة القبض على المجرم الذي لم يكن، سوى ذلك اللص السِكِّير الذي كان توعَّد الحارس الضحية بالانتقام، يوم أوقفه هذا الأخير عن سرقة ما بداخل سيارة الرجل المتعجرف الثري.. صاحب "الكانيش" المدلَّل. لقد نسيه الجميع، لكنه عاد لينفِّذ ما توعَّد به.

الفصل السابع عشر دخول الشتاء

بعد صيف حار شديد وخريف، أقبل الشتاء جافا بلا مطر، فعمَّ القلق، وأخذ الناس ينتظرون الفرج بفارغ الصبر. ومع توالي الأيام، بدأ هاجس الجفاف يؤرِّق الفلاحين، فسارع المصلون إلى المساجد يسألون الله الغيث بقلوب ملؤها الخشوع والأمل.

تمَّت صلوات الاستسقاء في أجوائها الإيمانية، لكن، ما مِن غيوم تلوح في الأفق. وفي الوقت الذي بدأ اليأس يستبدُّ بأكثر القلوب إيمانا وتفاؤلا، استجابت السماء للدعاء، فعمَّ الغيث أقاليم البلاد زارعا الفرحة في قلوب العباد.. فمساء ذات يوم، وعلى غرار باقي مناطق الحاضرة ودواويرها، هبَّت رياح عاصفة على دوَّار الشوك، وتكاثفت الغيوم داكنة في السماء، فبرقت بروق، ودوت رعود مُجلجِلة اهتزَّت لها أركان الأكواخ وجدرانها تكاد تُجفِّل الصَّواهل عن إسطبلاتها، ففرِح السكان، وانشرحت صدورهم - رغم هاجس الفيضان - لتساقطات مطرية قوية غزيرة، سرعان ما حوَّلت سطوح أكواخهم القصديرية المموَّجة المنحدرة، إلى ميازيب لتصريف المياه المتهاطلة صوب الصحون المكشوفة والأزقة...

ظلت الأمطار تنهمر مُتقطعة طوال الليل. وكلما امتلأت الصحون، سارع السكان إلى إفراغها قبل أن تندفع المياه داخل الغرف فتغمرها بكاملها.. عملية مُتعِبة مُجهِدة شارك فيها الكبار والصغار مُشمِّرين عن سواعدهم وسيقانهم يملأون السطول بالمياه المتدفقة ليقذفوها خارج

أكواخهم في غياب مجاري الصحون حُفاة ترتعد أجسامهم تحت ملابسهم المبللة.

وعلى غِرار جيرانها، سارعت حليمة تكنس المياه المتجمِّعة بمكنستها المطَّاطية خارج الصحن صوب الزقاق وزوجها إلى جانبها يساعدها. أمَّا حسن، فلبث مُستلقيا في فراشه يتابع بأسف مِحنة والديه في صراعهما مع المياه الهائجة.. إذ لو لا إعاقته، لَما تأخَّر في إراحتهما مُشمِّرا عن ذراعيه يحذو حذو بنات عيَّاد بالكوخ المجاور مع أبويهن العجوزين.

كان المطر قد توقَّف مع مجيء الصباح مانحا سكان الدوَّار، فرصة استرجاع أنفاسهم وتقييم الأضرار.. إذ بدت الأكواخ مُتداعية مُتصدِّعة في حاجة إلى الترقيع والترميم كما هو الحال في كل شتاء عاصف ماطر. في الخارج، ظلت المياه تنحدر سيولا جارفة عبر الأزقة حوَّلت الساحة إلى ما يُشبه مُستنقعا تتخلَّله أماكن زلِقة يصعب اجتيازها. أمَّا الشارع العام، فاستحال بدوره أحواضا مترابطة نتيجة ما شهِدته المنطقة من أمطار طوفانية عجزت بواليع الأرصفة على تصريف مياهها، مُعرقلة حركة المرور عرقلة لم تخل من حوادث وشجارات صاخبة، زاد من صخبها أبواق السيارات والشاحنات العالقة خلف بعضها تغوص عجلاتها في المياه والأوحال الراسبة...

بدا الوضع كارثيا أضحى معه الدوَّار في عزلة تامة يصعب الوصول إليه، كما يصعب مغادرته، إذ لزم معظم السكان أكواخهم في ذلك اليوم.. فلا مدرسة، ولا عمل،

ولا تسوُّق ... سيما والسماء ما انفكت غائمة مكفهرة توحي بالمزيد من الأمطار...

أنهى والدا حسن دفع المياه المتجمعة خارج الصحن، كما أنهيا ترميم ما يمكن ترميمه من أماكن الكوخ المتضررة، فانتقلت حليمة إلى إعداد وجبة الفطور بدءا بحساء الشعير الساخن الشهي، ليس أحسن منه في ذلك الجوِّ البارد الشتوي.

كان الجميع يُصغي إلى نشرات الأخبار الإذاعية الصباحية باهتمام وهي تعلن عن تساقطات مطرية غزيرة شمِلت ربوع المملكة، كما شمِلت الثلوج المرتفعات والهضاب العليا بقراها النائية، فعلق الصردي قائلا :

ـ الحمد لله.. هذا يُفرح الفلاحين، ويُنسيهم هاجس الجفاف!

ـ لن يكونوا سوى سعداء مسرورين بهذه الأمطار إن هي تهاطلت على قدر النَّفع، وإلاَّ جرفت البذور خارج حقولها! قالت حليمة.

ـ وقد تجرفا نحن أيضا سكان الدواوير والقرى! أضاف الصردي.

الفصل الثامن عشر نقود سعيدة

باكرا كعادتهن، خرجت الزوجة وبناتها إلى الحمَّام، فبقي عيَّاد وحده نائما غارقا في نومه.. لعلَّه يعيش حلما من أحلامه الصباحية؛ أحلام غريبة مثيرة كانت نهاية آخرها لدغة ثعبان أراد تدجينه لمحاربة الجرذان فلدغه. سُمع خبط شديد على الباب أيقظه من نومه مذعورا مرتبكا يُتمتم متسائلا عمَّن يكون صاحب الخبط المبكِّر المستعجِل. تحامل على نفسه، فنهض من فراشه وهو يسعل، ومشى ليفتح الباب بعد أن توالى الخبط مردِّدا :

- مهلا.. مهلا.. ما هذا الخبط؟ السلامة يا رب!

فَتح الباب، فإذا هو أمام ابنه المهدي بهيئته المزرية تفوح منه رائحة البول والكحول، فتراجع إلى الوراء مُتعوذا بالله، وتساءل قائلا :

- أهذا أنت؟! ظننتك لن تجرؤ على العودة، بعد أن تماديت في عقوقك ورجمتني بالحِجارة. لكنَّ الذليل الحقير يبقى ذليلا!

تقدم الابن مندفعا يحدق إلى أبيه في ازدراء، فتساءل هذا الأخير صائحا في غضب :

- ماذا تريد؟ لماذا عدت؟

لكنَّ الابن تجاهل صياح أبيه، ومشى يترنَّح صوب المطبخ علَّه يجد ما يأكله، إلاَّ أنه لم يعثر سوى على كِسرة خبز بائت أدخلها في فمه وأخذ يمضغها، ثم تساءل قائلا في لهجة ساخرة:

ـ ما هذه المجاعة؟! ما هذا القحط يا رب؟! أين تذهب نقود سعيدة.. البنت البارة المصونة المغتربة؟!

فعاد أبوه يسأله في توتر:

ـ قلت لك ماذا تريد؟ ما الذي جاء بك في هذا الصباح المنحوس؟

فابتسم الابن في مكر، وضرب بيده على جيبه، ثم قال:

ـ أظنك فهمت الإشارة؟

ـ لا حاجة لي بالفهم.. اخرج من هنا! هيَّا.. عُد إلى مزبلتك.. ليس لدي ما أعطيك.

ـ لا.. لديك كل الخير.. أتظنني غافلا عمَّا توصلت به من حوالات سعيدة مدَّة غيابي عن البيت؟

ـ وما شأنك أنت بحوالات سعيدة؟!

ـ نصيبي منها طبعا.. ألست أخاها العاطل عن العمل؟

ـ نصيبك؟ أي نصيب أيها الأخرق الذليل؟ أتطمع في نقود أختك المغتربة وأنت رجل قادر على جرِّ عربة؟ ألا تخجل من نفسك؟ أقضيت الليل تقارع الخمر صُحبة رفاق السوء والإجرام، وجئت لتوقظني من نومي تطلب ما لا نصيب لك فيه من نصيب؟ والله لو استطعت، لأدخلتك مستشفى المجانين وأرحنا أنفسنا منك!

سكت الولد برهة يتكلَّف الهدوء، ثم تساءل:

ـ لا شك أنك تسمع بعرنوص.. صانع ماء الحياة الشهير بالدوَّار؟

ـ لا أسمع به ولا حاجة لي أن أسمع..

فقاطعه ولده :

ـ لقد أعلن عن تصفية ما تبقَّى لديه من قناني هذا المسكِّر بأثمان رخيصة مُشجعة.

ـ وما شأني أنا بهذه القناني؟ يُصفِّيها صاحبها بالمجَّان حتى.

ـ شأنك التمويل طبعا.. إعطائي النقود.. بما فيها مُستحقاتي من مصروف الجيب، كي أقتنيَ ما استطعت من ماء الحياة كباقي رفاقي. أرجوك لا تفوِّت عليَّ فرصة كهذه!

فعاد أبوه يصرخ به وقد ثار ثائره:

ـ اغرب عن وجهي! لن أعطيك سنتيما واحدا لتصرفه في الحرام! ألا تتعقَّل ولو مرة واحدة؟ ألا تتوب إلى الله؟!

بدا الابن مُتجاهلا غياب أمه وأخواته، فاقترب من أبيه، وقال له في لهجة المحذر :

ـ لن ينفعك كلامك هذا.. هات ما عندك من نقود ودعني أنصرف قبل أن ينفد صبري.

في هذه الأثناء، سُمع صوت ينادي: «المهدي!».

- أسمعت.. حتى رفيقي سئم الانتظار. خلِّصنا يا رجل.. كفاك مراوغة وبخلا.

- لا مراوغة ولا بخل.. اخرج من هنا.. دعنا وشأننا!

سُمع النداء من جديد، فقطَّب الابن متوترا واحمرَّت عيناه جاحظتين تقدحان شرا متطايرا، لكنَّ أباه أردف يقول:

- هيَّا.. ماذا تنتظر؟ الحق برفيقك هذا! اخرج من هنا.. اخرج!

كان عيَّاد يصرخ في وجه ولده صراخا أثار سخط الجيران في ذلك الصباح الباكر. لكن ما العمل.. فالوالد العجوز المتهدِّم، لم يبق لديه سوى الصراخ.. إذ لو عادت إليه قوُّة شبابه زمان البادية، لطوَّح بابنه خارج البيت، بدل إجهاد نفسه في صراخ لا طائل منه. لكن هيهات.. فذلك زمان وهذا زمان!

تأكد المهدي من أنَّ أباه لن يعطيه ما جاء من أجله، فأمسك به من كتفيه، وطفِق يُخضخِضه في هيجان عصبي دافعا به داخل الغرفة، ثم أخذ يلكمه في وجهه بكل قواه، فانهار الوالد العجوز فاقدا وعيه وطقم أسنانه العاجية لا مُنقذ له ولا مُعين. وبلا رحمة ولا شفقة، التقط الابن الهائج يد مِهراس نُحاسي ثقيل، وانهال على أبيه يشدخ رأسه شدخا جنونيا إلى أن كلَّت ذراعه. لم يحتمل رؤية وجه

ضحيته الملطخ بالدماء، فقلب الجثة على بطنها في حِقد وكراهية، وأنشأ يفتش الغرفة بحثا عن النقود مرتبكا متسرعا إلى أن توقف عند فراش أبيه المبعثر، فرفع الوسادة، ليجد محفظة نقود بالية مهترئة ما إن فتحها وبدت له أوراقها النقدية، حتى صاح فرِحا رافعا المحفظة في يده:

ـ وأخيرا.. نقود سعيدة.. البنت البارة المغتربة! ها هي ذي جديدة زرقاء زُرقة السماء الصافية فرِحة بحريتها! ها هي ذي.. وليكن مصدرها ماخورا قذرا! انتظرني يا بائع ماء الحياة.. انتظرني.. سأخلِّصك من قنانيك بكاملها!

عاد نداء رفيقه يُسمع عاليا هذه المرة، فتخطى المجرم جثة أبيه، وأسرع يخفي النقود في جيبه ويداه ترتجفان، ثم خرج يهرول تاركا الباب مفتوحا مشرعا تتلاعب به الرياح.

وفور خروجه، عاتبه رفيقه غاضبا :

ـ ما كل هذا الوقت؟ كنت سأمشي من هنا لولا أنك خرجت. (ثم تساءل) مالك؟ أراك شاحبا مرتبكا؟

ـ لا.. لا شيء.. تشاجرت مع أبي شجارا أفقدني أعصابي، فطرحته أرضا مُغمى عليه قبل أن أسرق منه النقود، لِنسرِع.. فقد لا يلبث أن يستفيق من غيبوبته ويُطاردنا بصراخه.

فتساءل رفيقه في نفسه: "مُغمى عليه؟!"

وفي طريقهما إلى صانع ماء الحياة وبائعه بأقصى الدوَّار، لاحظ الرفيق آثار دم على قميص صاحبه، فتأكد أنه كذب عليه، وأنه لا شك قتل أباه ليسرق نقوده. لكنه ما لبث أن قال يحدِّث نفسه مُحاولا تجاهل الأمر: «لِيقتل عائلته بكاملها.. هذا لا يهمني في شيء».

صحيح.. إن ما يهمه لا ينفك يتصوَّره أمام عينيه.. قناني ماء الحياة، وقد أراه صاحبه ما يكفي من النقود لاقتنائها بصناديقها ...

اختفى الرفيقان بين أزقة الدوَّار الملتوية، فظهرت زوجة عيَّاد وبناتها الثلاث عائدات من الحمَّام يرتدين جلابيبهن ويلفُفن رؤوسهن بما يشبه الشيلان لا يدرين ما ينتظرهن. إلاَّ أنَّ القلق سرعان ما بدأ يساورهن عندما رأين باب كوخهن مفتوحا مُشرعا يُسمع صريره بفعل الرياح، فأسرعن الخطو تخفق قلوبهن.. إذ ليس من عادة عيَّاد ترك الباب مفتوحا على هذا النحو، كما ليس من عادته أن يستيقظ من نومه في هذا الوقت المبكِّر من الصباح.

دخلت الأمّ وبناتها كوخهن المفتوح، فتزايد قلقهن مع ما عمَّ من صمت مُطبق رهيب. دنون من الغرفة، فرأين ما لم يخطر لهن على بال.. رأين الرجل مُنبطِحا مُضرجا بدمه السائل عبر شقوق رأسه المهشمة ويد المِهراس بجانبه، فتسمَّرن في أماكنهن مذهولات من هول الفاجعة، لكن سرعان ما رمت البنات بحقائب الحمَّام، وأخذن

يلطمن وُجوههن في نواح وعويل. أمَّا الأم، فوقفت مصدومة جامدة في مكانها كالصنم.

تصاعد النواح والعويل، فسارع الجيران لمعرفة ما حدث. وكل مَن أطلَّ برأسه إلى داخل الغرفة ـ مسرح الجريمة ـ تراجع مذعورا مقشعرا ...

دار الحديث بين الجيران يُشير بأصابع الاتهام إلى ابن الضحية.. الولد المنحرف العاق الذي ظل رفيقه يناديه بأعلى صوته في ذلك الصباح الباكر، ما ستؤكده أمي نجمة أخبار الدوَّار عندما جهرت تقول:

ـ إنَّ الجاني.. ليس سوى المهدي.. لقد رأيته بأم عيني عند دخوله وخروجه من الكوخ يُسرع مهرولا دون أن يراني. استغربت الأمر، ووقفت أراقبه إلى أن اختفى ورفيقَه عن ناظري. ساورتني بعض الظنون، لكني ما ظننت أنه قادر على قتل أبيه بهذه الوحشية!!

تجسُّس نال استحسان الحاضرين لا شك في صحته.. فلئِن عُرفت المرأة بالتجسس على جيرانها، فإنها لم تُعرف بالكذب.. لقد شهِدت بما رأت عيناها شهادة جريئة صادقة ستضعها الشرطة القضائية على قائمة الدلائل والحُجج.. كبصمات الجاني على يد المِهراس النحاسي...

وما هي إلاَّ أيام قلائل، احتسى فيها المجرم ما استطاع من ماء الحياة، حتى تم القبض عليه سكران طافحا مُعربدا بإحدى الحانات ذات مساء، لِيُحال على أنظار العدالة مُعترفا بجريمته الشنعاء.

الفصل التاسع عشر الموعد

جلس توفيق برصيف مقهاه ينتظر قدوم صديقه جعفر السمسار لِيرافقه كالمعتاد إلى فيلاَّ تاجر المخدرات.. صاحب ملهى "لابلنسوار" الذي كان عرَّفه عليه، بُغية تزويده بالكوكايين. كان جعفر قد أخذ موعدا مع التاجر المذكور.. زبونه الذي ظلَّ يتوسط له في بيع سياراته المرقمة بالخارج، وها قد حان وقت الموعد والسمسار الوسيط لم يظهر بعد، ما أشعر توفيق بالتوتر والقلق. وفي الوقت الذي بدأ ييأس من قدوم صاحبه، ظهر هذا الأخير قادما يقطع الشارع، فسارع إليه يسأله :

ـ ما لك يا صاحبي؟ ما الذي أخرك؟ لقد فات وقت العصر!

ـ أخذت قيلولة بعد وجبة غداء دسمة، فاستغرقت في نوم ثقيل. معذرة!

ـ لا بأس.. هيَّا بنا الآن.. لِنسرِع كيلا نُغضب الرجل بتأخُّرنا عن الموعد.

ركِب توفيق سيارته المركونة بالرصيف، وركِب جعفر إلى جانبه، فانطلقا صوب فيلاَّ تاجر المخدرات. وفور وُصولهما، خرج صاحب الفيلاَّ بجسمه الثقيل لاستقبالهما مُرحبا مبتسما، وقادهما للجلوس بالصالون وهو يسأل السمسار:

ـ كيف حالك يا جعفر؟

ـ بخير والحمد لله! وأنت.. كيف هي الأعمال؟

ـ نقول بخير على كل حال.

ـ وهل من سيارة في الطريق للبيع؟ تساءل جعفر.

ـ قريبا إن شاء الله.

ـ اللهم يسِّر الأمور! على أيِّ نحن في الخِدمة.

ـ شكرا.. شكرا. ردَّد التاجر والابتسامة لا تُفارق شفتيه.

جلس الرجال في صالون مفتوح فسيح فخم يعكس ثراء صاحبه بأثاثه العصرية الفاخرة؛ جلسوا حول مائدة زجاجية، فأحضرت الخادمة أكوابا من عصير الفواكه، ووضعتها على المائدة بطريقة آلية ثم انصرفت. ولأنَّ الأمور تسير بسرعة وحذر في هذا النوع من التجارة، نهض التاجر يستأذن مردِّدا :

ـ سأعود حالا.. تفضَّلا.. تفضَّلا.

ثم مشى لِيصعد درجا مرمريا لمَّاعا بالجهة المقابلة ويختفي داخل غرفة بالطابق العلوي. وما هي إلاَّ دقائق، حتى عاد يحمل حقيبة ثقيلة سوداء. وضع الحقيبة فوق المائدة أمام الرجلين، وطفِق يستخرج منها أكياسا بلاستيكية بيضاء شفَّافة من مخدِّر الكوكايين تتفاوت أوزانها. أخذ توفيق يحملق إلى البضاعة المعروضة مندهشا لِكميتها، ثم التفت إلى التاجر يسأله عن السعر، فأجابه هذا الأخير قائلا:

ـ نفس سعر المرة الفائتة، ولو أنَّ الكُلفة الإجمالية في ارتفاع متزايد. أمَّا الجودة، فقد جرَّبتها.. فأنا لا أبيع المزوَّر ولا المغشوش حتى لا أخسر زبائني.

ـ صحيح.. بضاعة أصلية خالصة، وما شككنا في جودتها. قال توفيق.

ـ والسعر معقول حقا. أضاف جعفر وهو يتلذذ العصير.

بدا توفيق حائرا بين الأكياس قبل أن يضع كيسا جانبا وهو يقول:

ـ سأكتفي بهذا الوزن.

ـ كما تريد.. الأوزان واضحة شفَّافة أمامك. قال التاجر.

وفي اللحظة التي أنشأ توفيق يملأ شيكا لفائدة التاجر محاولا التحكم في يده المرتعدة، داهمتهم الشرطة بأسلحتها متلبسين بما يعاقِب عليه القانون، إذ صاح قائدهم:

ـ شرطة! لا تتحركوا!

مُداهمة مفاجِئة أفزعت الرجال الثلاثة وجمَّدتهم في أماكنهم. بدا صاحب الفيلاَّ مصدوما لا يصدِّق أن يُقتحَم مسكنه المَهيب بهذه السهولة وهو التاجر الفطن الحذر لا يتعامل مع أيٍّ كان. لعل زبونا أو صديقا من ذوي النفوذ الذين طالما تأرجحوا في ملهاه الليلي قد وشى به إلى

الشرطة.. فالضمائر قد تصحو، والأوضاع تتغير.. فما إن تمت الوشاية به مُفصَّلة دقيقة، وتمَّ الحصول على الإذن بالتفتيش، حتى سارعت الشرطة تترصَّده ذلك اليوم لِساعات طِوال، إلى أن جاءت الفرصة لمداهمته والقبض عليه.

فتَّش رجال الشرطة بالأماكن المشبوهة، فعثروا على المزيد من الممنوعات. جمعوا الأكياس كلها، واقتادوا الرجال الثلاثة إلى حيث سيتم التحقيق معهم قبل إحالتهم على النيابة العامة بتهمة الاتجار في المخدرات بالنظر لحجم الكمية التي تمت مُصادرتها.

أُدخِل المتهمون مركز الشرطة القضائية، فسارع المتهم الرئيسي يتصل بوكيله المحامي ليعلمه بالأمر. كما هاتف جعفر ابنه الأكبر لنفس الغرض نادما عمَّا ورَّط نفسه فيه. أمَّا توفيق، فجلس يشدُّ رأسه بين يديه وقد اغرورقت عيناه من شدَّة الندم. تردَّد طويلا، ثم أخرج بدوره هاتفه المحمول ليخبر زوجته بما حدث خجولا معتذرا، ويوصيها أن تخفي الحقيقة عن الأولاد.

سمِعت الزوجة ما كانت تُحذِّر منه وتخشاه، فصمتت مصدومة عاجزة عن الكلام. ولِخطورة التهمة، وما قد يترتب عنها من عقوبة حبسية مشدَّدة، اتصل توفيق بعد ذلك بالعقيد ليخبره هو الآخر آمرا إيَّاه بإغلاق المقهى، وإعادة المفاتيح إلى زوجته بعد أن يكون قد سوَّى ما يجب تسويته في انتظار ما سيحصل.

أعاد العقيد هاتفه إلى جيبه، وبنبرة الحزين المتحسِّر، نقل الخبر إلى زميليه العاملين، وكذا الشباب، بالإضافة إلى حسن. خيَّم جوٌّ من الحسرة والأسى، وبدأ الجميع يشعرون بالخوف والقلق على مصير المقهى وصاحبه.. الرجل الطيِّب الكريم المُتساهل، بدءا بالعقيد الذي اعتاد العمل بفضاء وجد فيه ضالته وراحته.

ومع حلول المساء، شرع العقيد والكآبة تلُف وجهه، في تسوية ما يجب تسويته. وعند منتصف الليل ـ بعد أن خلا المقهى من زبائنه ـ طفِق ينقل طاولات الرصيف ومقاعدها إلى الفضاء الداخلي بمساعدة الشباب. أطفأ الأنوار، ثم شرع يقفل الأبواب تنفيذا لأوامر مخدومه المعتَقل.

وقبل أن يتوادعوا، تجمَّع العمَّال إلى جانب الشباب أمام المقهى المُقفَل يتبادلون نظرات قلق وأسى، غير قادرين على تقبُّل الأمر.. كيف لا وقد وجدوا أنفسهم ـ فجأة ـ خارج فضاء آمن ظلَّ مصدر رِزق العمَّال، وملاذا دافئا للشباب العاطل.

أُقفِل المقهى وشاع خبر صاحبه، فتفرَّق الزبائن عبر المقاهي المجاورة إلاَّ الشباب.. فقد عادوا إلى تسكعهم وتجمُّعهم بالأزقة مكشوفين لا ملجأ مرحِّب حاضن يسمح للنعَّاس إتمام نُعاسه، كما عاد العقيد إلى بطالته. أمَّا حسن، فوجد له مكانا ظليلا يواصل فيه بيع سجائره بجوار مفيد صديق والده.. بائع المجلاَّت والصحف.

الفصل العشرون عودة الطيور

مضى عامان على قدوم لجنة الإحصاء، فبدأ سكان الدوَّار ييأسون مِمَّا وعد به رئيسها لا بديل لهم عن أكواخهم بصيفها وشتائها ... وعشية ذات يوم، وبشكل مفاجئ، عادت طيور البشارة لِتحطَّ فوق الأسلاك الكهربائية وحبال النشير، فاحتشد السكان حولها من جديد يرحبون بعودتها فرحين مبتهجين؛ عادت بطلعتها البهية المبَاركة، فتفاءل بها المؤمنون بالفؤول الحسنة، وكانت ـ مرة أخرى ـ عند حسن تفاؤلهم.. إذ صباح اليوم الموالي لعودتها كمحطة اضطرارية في طريق هجرتها الطويلة، وأمام استغراب الجميع، حضر أعضاء لجنة الإحصاء بمعية الشيوخ والأعوان تصاحبهم الشرطة حاملين حقائبهم، وتفرقوا عبر أزقة الدوَّار لِيُسلِّموا السكان المسجلين المستفيدين مفاتيح مساكِنهم الجديدة، وما يُثبت مِلكيتها ويمنحهم حقَّ التسجيل والتحفيظ، محدِّدين لهم تواريخ ترحيلهم.

تسلَّم الجميع مفاتيحهم ووثائقهم بشروطها المحدَّدة. أمَّا المتوفُّون والغائبون، فوُضعت ملفاتهم قيد النظر. ولكي تمرَّ الأمور يسيرة مُنتظِمة كما خُطِّط لها، قال رئيس اللجنة في ختام كلمته عبر مُكبر الصوت: " ... وعلى المستفيدين من كل فوج، أن يكونوا مستعدين للرحيل مصحوبين بوثائقهم اللاَّزمة. (ثم تابع) أمَّا أصحاب الإسطبلات والحظائر، فعليهم الإسراع في البحث عن بدائل لدوابهم ومواشيهم إن هم أرادوا التمدُّن"

عمَّت الفرحة السكان، فشرع بعضهم يتهيؤون للرحيل قبل الأوان.

الفصل الواحد والعشرون حي الرحمة

ظهيرة ذات يوم مُشمس صيفي، توقَّفت سيارة عند رصيف مقهى شباب الحي المُقفَل، فترجَّل عنها صاحبها، ووقف ينظر مندهشا منبهرا مِمَّا تراه عيناه من إصلاحات وبنيات تحتية غيَّرت معالم المنطقة.. فهذا طراموي يسير قادما من الجنوب في اتجاه محطته النهائية يُقرع جرسه. وذاك من الشمال يقطعان الشارع العام في هيبة وشموخ. في الخلف، حيث كان يتواجد الدوَّار بساحته ومحيطه، يبرز مركز ضخم شاسع لِصيانة تلك القطارات العصرية الحديثة. كان صاحب السيارة، فتى وسيما، قوي البنية، حسن الهِندام يرتدي لباسا صيفيا أنيقا. ولمعرفة ما حلَّ بساكنة الدوَّار، سأل الفتى صاحب متجر يُطلُ على الشارع العام، فحملق إليه صاحب المتجر من فوق نظارته، وأجابه قائلا:

- لقد تمَّ ترحيلهم إلى مُجمَّع سكني بحي الرحمة منذ سبع سنين أو ما يزيد.

- سبع سنين.. حي الرحمة؟! تساءل الفتى مندهشا.

- نعم.. حي حديث العهد لا يبعد كثيرا عن هنا.. يمكنك الذهاب إليه مباشرة عبر الجهة الأخرى من الشارع. وعند وُصولك المحطة النهائية لِحافلات النقل الحضري، انعطف يمينا ستظهر لك بناياته بارزة واضحة.

شكر الفتى التاجر، ثم ركِب سيارته وانطلق وكلُّه شوق لرؤية أبويه وأخواته وهم ينعمون بسكن لائق جديد قد يُنسيهم مِحن الدوَّار ومشاكله. وهو في طريقه، اختلطت

لديه مشاعر الفرح والقلق؛ الفرح لمعانقة والديه، والقلق بشأن صحتهما سيما أبوه.. الرجل العجوز المريض. تُرى هل لا زال حيًّا يسعل، أم فارق الحياة؟ مسح عرقه عن جبينه لشدَّة الحر، وعاد يتساءل في نفسه عن حال أخواته العزيزات الطيِّبات.. هل تزوجن وأصبحن أمهات؟ وسعيدة.. الأخت الكبرى.. هل ما زالت مُغتربة بإيطاليا؟

قطعت السيارة نصف الطريق، فبدأت تلوح في الأفق الشرقي خلف أرض بورية شاسعة، بنايات بيضاء ناصعة تعكس ضياء الشمس الساطعة، فأخذ الفتى يلقي إليها نظرات خاطفة بين الفينة والأخرى، وهي تتضخَّم شاهقة مع تقدُّم السيارة، فقال يحدِّث نفسه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة السرور والرضى: «لا شك أنه حي الرحمة».

مَن يعرف هذا الفتى عندما كان طفلا يافعا، قد لا يخطئ في التعرف عليه رغم عامل الزمن.. إنه زهير ابن عيَّاد الأصغر طبعا.. الابن الذي كان قد اختفى في ظروف غامضة صحبة صديقه حمزة.. فبعد أن تناولا فطورهما بالخيمة شمال الساحة كالعادة يوم اختفائهما، توجه الصديقان اليافعان الغريران إلى المحطة الطرقية بدل المدار حيث كانا يعملان في مسح زجاج السيارات عند إشارات الوقوف، وسافرا إلى الناظور بُغية التسلل إلى مليلية المجاورة، ومن ثمَّ إلى أوربا في هجرة سرية.

وصل الصديقان إلى الناظور، لكنَّ الأمور لم تكن سهلة يسيرة كما تصوَّرا، إذ عانيا في كسب قوتهما

اليومي، وأداء واجب المبيت داخل شاحنة مُعطَّلة مهجورة لفائدة حارس ليلي للسيارات والشاحنات. وفي غياب فرص الشغل، عاد الصديقان إلى مهنتهما الهامشية بدل التشرد فريسة لذئاب الشارع ...

ظلَّ الصديقان يعملان بحماسهما المعهود. وكلما وفَّرا بعض النقود، يبكِّران بالذهاب إلى مليلية لتحقيق هدفهما المنشود. وذات صباح، كان الصديقان يقفان بعيدا شرق بوَّابة المدينة المحتلَّة حيث يتزاحم المتاجرون في التهريب المعيشي من نساء ورجال، فإذا بأفارقة من جنوب الصحراء ينطلقون في ركضة واحدة ليتسلَّقوا السياج الحديدي الحدودي. وعلى غير شعور منه، انطلق حمزة لينضم إليهم صائحا بصديقه أن يلحق به. انضم إليهم ـ على صغر سنه ـ وكان من المجتازين للسياج المحظوظين الناجين من الموت. أمَّا زهير، فتسمَّر في مكانه متردِّدا مذهولا مِمَّا أقدم عليه صديقه من جرأة مفاجِئة إلى أنْ حضرت الشرطة، فابتعد عائدا أدراجه يجتر مرارة تردُّده.. لقد ضيَّع على نفسه فرصة مُواتية قد لا تتكرَّر، وعليه انتظار فرصة ثانية.

افترق الصديقان، فبقي زهير وحيدا يُواصل نشاطه المهني عبر شوارع الناظور. لكنه لم يفقد الأمل، بل ظلَّ يحاول مُجاراة صديقه في تسلُّله البطولي، على أمل اللحاق به بمركز إيواء المهاجرين القاصرين بلا مأوى إن هو تواجد هناك كمحطة أولى. إلاَّ أنه، ولسوء حظه، ستبوء محاولاته بالفشل والإحباط. وصباح ذات يوم، توقَّفت سيارة عند إشارة الوقوف حيث يقف، فسارع الطفل اليافع

بخِرقته إلى مسح زجاجها الأمامي يرشح جبينه عرقا، فناداه صاحب السيارة وسأله:

ـ ألم تجد صنعة تتعلمها بدل هذه المهنة؟

ـ أين هي هذه الصنعة يا سيدي؟ أجاب زهير.

نظر إليه الرجل كالمتفكر وعاد يسأله:

ـ أتقبل العمل معي في الميكانيك.. تتعلَّم إصلاح السيارات بدل مسح زجاجها بالشوارع والمدارات؟

ـ بالطبع نعم.. وسأكون ممتنا شاكرا لك يا سيدي.

ـ اِركب!

ركِب زهير إلى جانب الرجل الغريب، فانطلقت السيارة إلى وجهتها. بدا الرجل في نهاية كهولته، حسن الهيئة، تعلو وجهه مَسحة جِدٍّ ووقار ارتاح له الولد ولم يشكك في نواياه. وفي طريقهما، حكى زهير قصة تواجده بالناظور، فقال له الرجل:

ـ دعك من فكرة الهجرة هذه، وتعلَّم صنعة تواكب العصر تضمن بها مُستقبلك هنا في بلدك، بدل أنْ تخاطر بحياتك نحو المجهول. فأنا مثلا، بدأت أتعلَّم الصنعة في مثل سنك، وبالجدِّ والمثابرة، صِرت خبيرا ميكانيكيا صاحب مرأب بدخل محترم والحمد لله!

بدا زهير كالحالم مسرورا مقتنعا بنصيحة الرجل.. الميكانيك.. فلطالما رغِب في معرفة كيف يعمل محرك السيارة؟ كيف تدور عجلاتها؟ وها قد أتته فرصة إشباع رغبته، وبناء مستقبله.

توقَّف الرجل بسيارته عند رصيف مرأب مُقفل بأحد الشوارع الفرعية، ثم التفت إلى الولد يقول له مشيرا إلى المرآب:

ـ هذا هو المرأب. تذكَّره جيِّدا. إنه مُقفل لأننا لا نعمل يوم الجمعة. عليك أن تكون هنا غدا عند الثامنة صباحا لتبدأ العمل كمساعد، وتتعلَّم الصنعة في ذات الوقت. وبخصوص المبيت، خير لك أن تنام هنا بالمرأب.. ستجد فيه كل الراحة والأمان.

ـ ثم أخرج ورقة نقدية من جيبه، وقال له:

ـ خذ هذه أعِن بها نفسك ريثما تشتغل.

ـ شكرا.. شكرا لك سيدي. ردَّد زهير، ثم ترجَّل عن السيارة، وانصرف فرحا مسرورا يطوِّح بما تبقَّى لديه من خِرق.

اشتغل زهير مُرحَّبا به وسط العمَّال، وأخذ يتعلَّم قواعد الصنعة مُتحمسا مكتشفا أسرار السيارة الميكانيكية بتفاصيلها.. هذه الآلة العجيبة التي طالما تمنَّى قيادتها. كان يقضي نهاره في العمل مُجدًّا يعمل بنصائح معلِّميه. وفي الليل، عندما يأوي إلى فراشه بأقصى المرأب لينام، يتذكر

صديقه حمزة مُكررا تساؤله في نفسه: «تُرى هل عبر البحر مُتسللا إلى الضفة المقابلة، أم ما زال في مليلية؟». أمَّا أبواه وأخواته، فما غابوا عن فكره يوما.

وبعد سنين من المثابرة والإصرار، أصبح زهير ميكانيكيا مُحترفا يحظى بثقة واحترام الجميع، وها هو يعود لزيارة أهله وأحبَّائه بعد غياب طويل.

توقَّف الفتى بسيارته عند المحطَّة النهائية لحافلات النقل الحضري كما دلَّه التاجر، ثم انعطف يمينا ليركنها عند مدخل مرَكب سكني حيث انتصبت لوحة عملاقة كلوحات الإشهار الطرقية كُتب عليها: "المشروع السكني حي الرحمة". ترجَّل عن سيارته، وأخذ يجول ببصره في المنطقة الشاسعة بأبنيتها وخلائها مستنشقا هواءها النقي الصحي.. فلا تلوث، ولا أزبال، ولا إسطبلات، ولا حظائر مواشي ... دخل المرَكب من مدخله الرئيسي فرحا مندهشا مِمَّا تراه عيناه من عمارات ضخمة مُتناسقة شبه دائرية تُطل بنوافذها وشُرفها على حديقة فسيحة تحفها الأشجار باسقة وارفة.

بدا المجمَّع مُتكاملا مِثاليا بمرافقه العمومية، ناهيك عن وسائل النقل. تقدَّم الفتى لعله يصادف شخصا يعرفه، فلفت نظره وجه امرأة عجوز تخرج من سوق نموذجي لم يتأخر في التعرف عليها.. إنها أمي حليمة زوجة الصردي. كانت تمشي مُتثاقلة تحمل في يدها قفة التسوُّق، فاقترب منها وهتف بها قائلا:

ـ أمي حليمة! أمي حليمة!

فالتفتت المرأة، وأخذت تحدِّق إلى الفتى مُحاولة التعرف عليه، ثم صاحت تتساءل في اندهاش:

ـ كيف.. زهير ابن عيَّاد!

ـ نعم. أجاب الفتى وهو ينحني عليها يعانقها متسائلا:

ـ كيف حالك أمي حليمة؟

ـ نحمد الله يا ولدي! أين غبت كل هذه المدة دون أن تسأل عن والديك؟

ـ كنت أشتغل بالناظور.

ـ بالناظور.. ألم تهاجر إلى الخارج كما كنا نعتقد؟

ـ لا.. لم يساعدني الحظ، فاكتفيت بالعمل بالناظور. ثم تساءل:

ـ كيف حال عمي الصردي؟

ـ لقد أقعده المرض، وزاد بصره ضعفا، حتى صار لا يقوى على مغادرة البيت!

فتأسف الفتى داعيا له بالشفاء، وعاد يتساءل:

ـ وحسن.. كيف حاله؟

فتنهَّدت المرأة في أسى وقالت:

ـ أين هو حسن يا ولدي.. لقد مات بعد عام من رحيلنا عن الدوَّار!

ـ مات.. كيف؟!

ـ مرِض طريح الفراش، فتوفَّاه الله!

ـ مع الأسف.. كان حقا فتى طيبا! ليرحمه الله، وليصبركم على فراقه!

ـ وليصبرك أنت أيضا يا ولدي في وفاة والديك!

ـ كيف.. أمات والداي؟! تساءل زهير متفاجئا.

ـ نعم.. فأبوك المسكين، مات مقتولا داخل كوخه بالدوَّار على يد أخيك المهدي منذ سنين.. لقد شدخ رأسه بيد مِهراس!

ـ شدخ رأسه؟! اللعين! وأمي.. كيف ماتت؟

ـ أدنفها المرض، فماتت تاركة البنات يعشن وحيدات!

أطرق الفتى مصدوما مُتفجِّعا، ثم جلس القرفصاء واضعا يديه على أذنيه كأنه لا يريد سماع المزيد. رقَّت المرأة لحاله، فانحنت عليه تشدُّه من ذراعه وهي تقول:

ـ تصبَّر يا ولدي.. قدر الله لا مفرَّ منه! تعال لأريك مسكنكم الجديد.. إنه بجوار مسكننا تماما كما كنا في دوَّار الشوك.

فنهض الفتى مُتحاملا على نفسه، ومشى إلى جانب المرأة حزينا محطما كأنَّ عودته لم يعد لها معنى ولا طعم. وهما يدنوان ببطء من عمارة ضخمة شامخة، أطلَّت امرأة عجوز من شرفة بالطابق الأول، وأخذت تحدِّق إلى الفتى عن بُعد كأنها تتحقَّق من هويته.. إنها أمي نجمة " أخبار الحي" كما عُدِّل لقبها السابق. ولقوة ذاكرتها، لم تتأخر في التعرف عليه، وستكون عودته المفاجئة، وما بدا عليه من هيئة وأناقة، موضوع حديثها إلى جاراتها ذلك اليوم، ومثار اهتمامها إلى أن تعرف القصة بكاملها.

دخلت المرأة العمارة، وأخذت تصعد الدرج في عناء والفتى من خلفها إلى أن وصلت الطابق الرابع والأخير، فتوقَّفت تسترجع أنفاسها، ثم قالت:

ـ لقد أنهكنا صعود الدرج نحن المرضى والعجائز في غياب مِصعد! لكننا نحمد الله أنْ خلَّصونا من محن الدوَّار ومشاكله!

ثم التفتت إلى الفتى الغارق في حزنه وألمه تقول له مشيرة إلى شقة مقابلة:

ـ أرأيت تلك الشقة عن اليمين.. إنها شقتكم.. مسكنكم الجديد.. تصبَّر يا ولدي تصبَّر.

تمتم الفتى شاكرا، وخطا نحو الشقة المشار إليها في فتور. وبينما أخذ يطرق الباب، دلفت أمي حليمة إلى شقتها المجاورة تجرُّ قفَّتها.

فتحت صفية.. الأخت الصغرى الباب، وتسمَّرت في مكانها تحملق إلى أخيها في اندهاش، ثم هتفت تتساءل:

ـ كيف.. زهير.. أخي زهير؟!

فتعانق الشقيقان في لهفة غامرة، وبادرت الأخت بالسؤال:

ـ كيف حالك يا أخي؟

ـ بخير والحمد لله! أجاب زهير والحزن باد عليه.

ـ سمِعت الأختان الأخريان.. فوزية وعائشة، اسم أخيهما يتردَّد عند الباب، فهرولتا ليعانقانه فرحا بعودته. وفي غمرة فرحهن، قادت الأخوات أخاهن إلى الصالون، وجلسن يرنون إليه في إعجاب لِما صار عليه من شاب قوي البنية، أنيق الملبس، فسألته عائشة:

ـ أين غبت كل هذه المدة يا أخي دون أن تسأل عنَّا؟! أكنت في الخارج؟

ـ لا.. توقَّفت مغامرتي بالناظور حيث أشتغل الآن في ميكانيك السيارات بعد أن فشِلت في التسلُّل إلى أوربا. وحتى أُعوِّض فشلي المُخجِل، قرَّرت ألاَّ أعود إلاَّ ميكانيكيا محترفا ضامنا مستقبلي.

تبرير غريب تفهَّمته الأخوات على غرابته، فتساءلت إحداهن:

ـ وحمزة؟

ـ استطاع تسلق السياج الحديدي لمليلية، ولست أدري أين هو الآن!

ـ مَن دلَّك على شقتنا يا أخي؟ تساءلت فوزية.

ـ أمي حليمة.. صادفتها وهي خارجة من السوق، فأخبرتني عن كل شيء!

ساد صمت حزن وأسى حينها، فتساءل زهير:

ـ متى ماتت أمي؟

ـ منذ ما يناهز العامين! أجابت صفية، ثم أردفت:

ـ وهي تحتضر، تمنَّت لو أنها رأتك واطمأنَّت عليك.

فأطرق الفتى يتمتم داعيا لأمه بالرحمة وقد اغرورقت عيناه، ثم عاد يتساءل:

ـ أين دُفنت؟

ـ بعيدا بمقبرة "الغفران". أجابت الأخت الصغرى، ثم استطردت:

ـ أمَّا أبي.. فدُفن بمقبرة الدوَّار.. إذ كنا ما زلنا نسكن هناك.

فتنهَّد الفتى يردِّد متحسرا:

- أبي.. أبي.. أتساءل كيف سمح لنفسه هذا المجرم الحقير، قتل أبيه بتلك الوحشية والفظاعة؟! لا شك أنهم قبضوا عليه وأعدموه.

- قبضوا عليه، غير أنَّ الخِبرة الطبية التي خضع لها بأمر من الوكيل العام، أسفرت عن خلل عقلي أنقذه من حبل المشنقة، فأُدخِل مستشفى الأمراض العقلية والنفسية حيث لا زال يُعَالَجُ هناك. أجابت عائشة.

عاد الصمت ليخيم من جديد بحزنه وألمه، إلى أن قطعه زهير يسأل أخواته عن مصدر عيشهن.

- فوزية وعائشة.. يعملان بمعمل للنسيج بالحي الصناعي منذ أن توفيت أمي وانقطعت عنا حوالات سعيدة. أمَّا أنا، فما زلت قعيدة البيت. أجابت صفية.

- سعيدة.. أمَا زالت تشتغل بإيطاليا؟

- نعم، لكنها فقدت شغلها بسبب أزمة الشغل، وتفرغت لرعاية ولدها.

- أتزوجت وأنجبت؟!

- تزوجت مصريا يعمل بالمطار.

- كنت أنوي زيارتها لو أنني نجحت في التسلل إلى أوربا.

ثم التفت إلى شقيقتيه العاملتين يسألهما:

ـ كيف هي ظروف العمل؟

ـ بخير والحمد لله! أجابتا معا. ثم استطردت عائشة:

ـ إننا الآن في عطلة إلى نهاية الشهر.

ـ حسنا.. أتمنى لكما التوفيق، وأرجو أنْ تقضيا معي عطلة العام المقبل، ومعكما صفية طبعا. ستُعجبن بالناظور.

ـ إن شاء الله. ردَّدت الأخوات، فتساءلت فوزية:

ـ أين تسكن يا أخي؟

ـ بإحدى العمارات وسط المدينة.

-أتعيش وحيدا؟

-نعم.. إذ ما زلت لا أفكر في الزواج حاليا.

سكت برهة، ثم عاد يتساءل:

ـ وماذا عن الأخوين السجينين؟

ـ لا يزالان يقبعان في السجن. ولسنا ندري متى ستنتهي عقوبتهما. أجابت صفية، ثم استطردت:

ـ إننا جدُّ قلقات خائفات ممَّا سيؤول إليه حالنا، إذا ما عاد هؤلاء المجرمون الثلاثة بمن فيهم المهدي. فلا أحد سيمنعهم من السكن في بيت أبيهم. هذه مُشكلتنا.. هاجسنا نحن البنات المستضعفات. ليتهم تركونا وشأننا!

ـ صحيح.. إنه لمشكل حقا، علينا أن نجد له حلاًّ! قال زهير، ثم تساءل والحزن يلازم نبرته الهادئة.

ـ وعبد الرحمان.. أخونا الأكبر.. أما يزال مُختفيا؟ أمَا مِن أخبار عنه؟

ـ ما مِن أخبار! لا نعرف أهو حي أم ميت! أجابت عائشة.

ـ مع الأسف.. كان يجب علاجه قبل أن يضيع تائها فاقدا عقله!

سمِع زهير ما يكفي من أخبار مُؤسفة محزنة حتى أنه كفَّ عن تساؤلاته ورفع رأسه يجول ببصره في الصالون الأنيق، فقالت له الأخت الصغرى:

ـ انهض يا أخي.. تعال لنريك الشقة بكاملها. ستُعجِبك بالتأكيد.

فنهض الفتى متثاقلا من أثر حزنه وألمه، ومشى خلف أخواته يلقي نظرة على الشقة بغرفها الثلاث ومطبخها وحمَّامها، قبل أن يتوقف عند الشرفة المطلة على الحديقة العمومية بأشجارها المُخضرَّة مُعلقا:

ـ شقة جميلة حقا.. إنها فسيحة واسعة، وهندستها رائعة تواكب العصر! هنيئا لسكان الدوَّار.. لقد صبروا، فعُوِّضوا بما يستحقونه!

أقامت الأخوات عَشاء تلك الليلة يليق بعودة أخيهن سيدور خلاله الحديث ويطول حول الأسرة ورحيل الوالدين التعيسين، قبل أن يختمه زهير بحكاية هجرته الفاشلة إلى أوربا، وإقامته بالناظور...

أمضى زهير شهرا كاملا بين أخواته زار فيه قبري والديه. وذات صباح، وهو يودِّعهن، وعد بأن سيبقى على اتصال بهن، كما وعد بزيارتهن كلمَّا واتته الفرصة.

انطلق الفتى بسيارته عائدا إلى الناظور، فبدا حزينا متأثرا بوداعه لأخواته ينتابه الشعور بالذنب لِقطع صِلته بعائلته طوال هذه المدَّة، حتى أنه لم يعلم بموت والديه وإنْ كان مَقتل أبيه، قد شاع مُتخطيًّا حدود الدوَّار إلى صفحات الجرائد ...

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، **من هنا**

تصفح إصدارات أخرى عبر مكتبة دار بسمة، **من هنا**

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المُحتَوَيات

الإهداء 6

الفصل الأول: دوَّار الشوك........................... 7

الفصل الثاني: مقهى شباب الحي 20

الفصل الثالث: الصَّردي..............................37

الفصل الرابع: أسرة عيَّاد 48

الفصل الخامس: حفيظ...............................63

الفصل السادس: المرأة العجوز والرضيع 82

الفصل السابع: وردِيَّة 91

الفصل الثامن: دخول الصيف 97

الفصل التاسع: اختفاء زهير..............................105

الفصل العاشر: الجُرذ المشؤوم 111

الفصل الحادي عشر: العُرس 120

الفصل الثاني عشر: عرض العرافة 125

الفصل الثالث عشر المعجزة 129

الفصل الرابع عشر كوخ العرافة 136

الفصل الخامس عشر المفاجأة 142

الفصل السادس عشر الزوبعة 146

الفصل السابع عشر دخول الشتاء 150

الفصل الثامن عشر نقود سعيدة 154

الفصل التاسع عشر الموعد.................................... 162

الفصل العشرون عودة الطيور 168

الفصل الواحد والعشرون حي الرحمة 171

أحمد مقداد

إطار بنكي سابق، تفرغ للكتابة - كهويته المفضولة - بعد أن تقاعد كتب واقتبس بضع مسرحيات بالعامية، وذلك عندما كان يمارس التمثيل بإحدى فرق الهواة، لكنها ضاعت مع مرور الزمن.

طيور البشارة

... هكذا كان قدوم تلك الطيور، فأل خير وبشارة على ساكنة الدوار. ولتكمل بشارتها، عليها أن تعود يوما، لتبشرهم - هذه المرة - بالرحيل إلى مساكنهم الجديدة في عزة وكرامة وقد استلموا مفاتيحها وما يثبت ملكيتها.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

bassmabook

00212771814934

bassmabook@gmail.com